إحسان عبد القدوس

علبة من الصفيح

مجموعة قصص تصور
قطاعات مختلفة من
المجتمع، وتكشف خبايا
النفس البشرية، وتحلل
الواقع الإنساني

الغلاف بريشة الفنان :

عمرو فهمى

علبة من الصفيح الصدئ..

خرجت من القرية.

ولن أعود.

ولست حزينا.. ولا آسفا.. بالعكس.. إنى أحس براحة غـريبة، وأعصـابى هادئة كمـا لم تهدأ من قبل، وابتسامة كبيرة تنطلق فى صدرى، وتلقى بظلها على شفتى.. أحس بإحساس الأب الذى اكتشف فجأة أن ابنه قد كبر وأصبح رجلا قويا.. والأب هو دائما آخر من يكتشف أن ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة إلى أبيه!!

والواقع أنى لم أتعمد الخروج من القرية، ولم أكن قد اتخذت قرارا بعدم العودة إليها إنما كل هذا حدث فجأة.

كنت جالسا فى المندرة مع شقيقى الأكبر عبدالرحمن، ومعنا الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد أبوعوف، وعبدالله رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى عبدالرحمن يتصدر المجلس كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا، جالسا على الأريكة العتيقة، وقد طوى إحدى ساقيه تحته،

ورفع ساقـه الأخرى وثناها، وألقى ذراعـه على ركبـته، وترك مسبحته تتدلى من يده، وقد تـباعدت حباتها فوق الخيط الذى يربطها، فكلما ألقى حبة منهـا اصطدمت بالحبة التى تحتها فى صوت مســموع.. وكانت تمضى الساعـات ولا يصدر عن أخى صـوت، إلا صوت حـبات مـسبـحتـه وهى تصطدم بعـضـهـا ببعض.. فإذا توقف هذا الصــوت، كان هذا ايذانا بأن أخى يهم أن يتكلم، فيرهف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، فى تلهف واهتـمام.. رغم أن أكـثـر ما يقـوله أخى لا يستــحق الاهتمام !!

وفجأة قال محمد أبو عوف :

– مش برضه نشوف طريقة نقوم بيها محامى للواد رزق.

واهتـزت أصابع أخى، وهى تعـبث بمسـبحـته، وتسـارعت دقات حباتها وهى تصطدم بعضها ببعض.

وقال الشيخ حسنين وهو يملأ شدقيه بحروف كلماته :

– رزق معتـوه ومجنون، وهو معفى من المسئوليـة شرعا، سواء بمحام، أو بغير محام.

وقال أحمد الرفاعى :

– والله أنا لسه مش مـصدق.. حد كـان يفتكر أن الواد رزق يعمل العملة دى.

وقال عبدالله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط :

– احنا المحقـوقين.. كنا سايبينـه طايح فى الكفر كله واحنا عارفين أنه مجنون.

ورد محمد أبو عوف فى عصبية :

– يعنى حد كـان عارف أن جنانه يوصل لحد كـده.. ما هو طول عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجة تخوف.

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام ساذج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى.

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبدالرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقمت فجأة من مجلسى، وتمتمت دون أن ألتفت إلى أحد :

– عن أذنكم.

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعاننى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر :

– على فين يا مأمون ؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفتة سريعة دون أن ألتقى بعينيه :

– داخل جوه شوية.

وقال محمد أبو عوف :

– ما تتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى حكاية الواد رزق.

ولم أرد عليه.

خرجت من المندرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعيناى على الأرض، اتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين

يمرون بى.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمراء المشققة.. وخيل إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهى تتحرك، كأن الأرض نفسها تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولى همهمات.. السلام عليكم.. العواف.. شى.. حا.. هع.. وأهمهم مع المهمهمين، وأنا أحس احساسا غريبا بأن هذه الهمهمة ليست سوى صوت احتكاك التروس التى تحرك قريتنا.. تروس بطيئة.. ولكن الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عينى المنكستين.. الأرض سمراء.. والجدران سمر.. والأقدام سمر.. وخيل لى أنى لو رفعت عينى فسأرى السماء سمراء.

وتوقفت عيناى عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما سمراوان أيضا، ومشققتان أيضا.. ورفعت عينى لألتقى بوجه «سبيلة»، وهو يطل على من تحت صفيحة الماء التى تحملها.. إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها.

ووقفت قبالتها أملأ عينى منها.. عيناها المكحلتان.. شفتاها الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادىء الصبور، وقد اختلطت صفرته بسمرته.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التى تحاول أن تخفف بها من نظرة استغاثة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما أرى هذه النظرة فى عينيها.. نظرة الاستغاثة.. تستغيث بى.. منذ كنا أطفالا وهى تستغيث بى.. ولم أستطع أبدا إغاثتها.. وبرغم ذلك فهى لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بى.. ولم تصدق أبدا أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكتم استغاثتى فى صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر.

وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى لم أقله.. واهتزت شفتاها كأنها هى الأخرى تحاول أن تقول شيئا.. ولم تقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى

بابتسامتها المسكينة، ونظرتي المستسلمة تلتقى بنظرتها المستغيثة.. ثم اهتزت ذراعها التى تسند صفيحة الماء فوق رأسها، فانسكب خيط من الماء فوق جلبابها الأسود.. وارتعشت رموشها فى ارتباك، وانطلقت قطرات الخجل فى وجنتيها، وتمتمت ببضع كلمات لم تصل إلى أذنى، ثم استدارت وسارت فى طريقها.

وانتابنى شعور جارف بأنى لن أرى سبيلة بعد اليوم.. لا أدرى لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك القرية، ولا أعود.. ووجدت نفسى ألتفت وراءها وأنظر إلى قوامها المفرود نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت، وتلفت حولى كأنى خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتى.. ثم عدت أنكس رأسى فوق صدرى، وأسير.

وتجاوزت فى سيرى أزقة القرية، وأخذت أسير على حافة المصرف.. عيناى منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام الفلاحين التى تمر بى.. ولم أرفع رأسى إلا عندما مررت بضريح أبى.

إن لأبى ضريحا كبيرا فى القرية.. مزار.. أقيم خارج منطقة المقابر، على حافة المصرف.. وله قبة خضراء، وفوق القبة هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية والقرى المجاورة يعتبرون أبى وليا من أولياء الله.. له كرامات.. كرامات سيدى محمد القماش.. وينذرون له النذور.. ويتمسحون بأعتابه.

وأبى لم يكن وليا من أولياء الله.. كان رجلا صالحا، طيبا، عنيدا.. ولكنه لم يكن أبدا وليا من أولياء الله.. وليس هناك أحد يؤمن بشخصية أبى ويقدرها حق قدرها ، مثلى .. وليس هناك

أحد أحبه مثلما أحببته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد فى القرية كلها الذى لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كـان أحـد أوليـــاء الله، وأخـذت تذيع فى القـريـة حكايات عن كـراماته.. وهى ليست حكايات كـاذبة، ولكنهـا أيضا ليست كرامات، إنما جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى كان بطلها أبى، كأنها كرامات.. وأخى استراح إلى اعـتبـار أبى من أوليـاء الله، وعـاش فى ظل هذه الخرافـة وحاول أن يسـتغلهـا، بل حاول أن يكون خـليفتـه فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حيـاته، وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسك بمسبحته، ويرتدى عمـامته، ويجلس جلسته.. وشارك أمى فى رواية الحكايـات عن كـرامـات أبيـه الشـيخ مـحـمـد القمـاش.. ولكن حكايات أخى كانت كـاذبة، مغالى فى كـذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع مرور السنين.. وخلال اثنى عشر عاما فقط ضاعت شخـصية أبى الحقيقية.. وضاعت القضـية التى وقف حيـاته عليها والتى أكـسبته حب واحـترام الفلاحـين، وأصبحت شخـصيتـه شخصيـة وهمية خرافـية.. شخصية رجل مشعوذ مجذوب.

ووقفت أنظر إلى ضريح أبى من بعيـد.. ولم أقرأ له الفاتحة كـما تـعود أن يقـرأها كل من يمـر به.. ولكنى ابتـسـمت له.. ابتسمـت له كأنى أواسيه فى محـنته، وفى شخصيـته الحلوة القوية التى ضـاعت وسط الخـرافـات التى بعـثـرت حـوله.. ابتسمت له كأنى أشجعه على احتـمال مصيره، فقد كنت دائما مقـتنعا بأن أبى لا يمكن أن يكـون مستـريحا تحت هذه القـبة الخضــراء الكبيـرة، ولا إلى صوت النســاء وهن يتمـسـحن به ليتشفع لهن حتى يحملن ويلدن!

ثم تجاوزت ضريح أبى، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التـقيت ببدوى أبو خليل راكبا حماره، عـائدا إلى القـرية.. وما كـاد بدوى يحـيينى حـتى قلت له كأنى أطلق أمنيـة ظلت حبيسة فى صدرى أمدا طويلا :

– أول ما توصل الكفر، فوت على أخـويا عبدالرحمن، وقول له إنى نزلت مصر.

وفى هذه اللحظة فـقط عـرفت أنى قـررت أن أترك القـرية، وعرفت أيضـا أنى لن أعود إليها.. ورفـعت رأسى، وسرت فى خطى سريعـة حازمة نحـو محطة القطار.. وقـد ارتاح صدرى واستقرت نفسى ووضح الطريق أمامى.

ولم أتنبـه إلى أنى مـرتد جلبـابـى الجـوخ، وفـوق رأسـى الطاقـيـة الصـوف، إلا بعـد أن أخـذت مـقـعـدى فى القطار.. وابتسمـت.. وتخيلت ضحكة مرفت عندمـا ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بل إن كثيـرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمـون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شـاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى ..

ولكن صورة مـرفت وصورة مـجتـمع القاهرة كله اخـتفت سريعا من خـيالى. ونسيت أنى مازلت مـرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقـية.. وعـدت أهيم فى قـصتى مع القـرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى.

●●●

وقصـة القرية معى تبـدأ دائما بوجـه سبيلة.. وسـبيلة هى حبى الأول، وربمـا كانت حبـى الوحيد، فكـل ما صادفنـى بعد ذلك من علاقات عاطفية لم يرتفع أبدا إلى مستوى العاطفة التى

ربطتني بسبيلة.. إنه حب تفتحت عليـه عيناى وأحاسيسى، منذ تفتح وعيى للحـياة.. حياتى لا تبـدأ بوجه أمى، ولا بوجه أبى، ولا بوجـه القـرية كلهـا.. بل إنى أحـس اليـوم كلمـا همت مع ذكرياتى البـعيدة، أحس كأنى لم أر وجـه أمى ولا وجه أبى إلا بعـد أن رأيت وجـه سبـيلة.. وربما كـانت نوازع الاسـتقـلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سبيلة هى أول خطوة لى نحو الاستقلال بحياتى، أول احساس بشخـصيتى فـى الحياة.. ولذلك فـحياتى تبـدأ منذ الأيام التى كنت ألعب فيها مع سبيلة فـوق أكوام السباخ فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وكنت أشترك معها فى تحميل السبـاخ فوق ظهر الحمار، ونسير معا ومعنا الحـمار إلى الغـيط القريب، لنفـرغ حملوة السـباخ.. ثم نعـود معـتلين ظهـر الحمـار.. هى فى المقـدمـة وأنا خلفهـا.. ولا أذكر فـيم كنا نتكلم أيامهـا، ولا ماذا كان يضـحكنا، وماذا كان يبكينا.. ولكننا لم نكن نفترق أبدا.. وكنت أعود إلى البيت لأواجه صرخة أمى وهـى تنظر فى هلع إلى جلبابى المتسخ :

– يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباخ.

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكـوام السباخ، إلا إذا ابتعدت عن سبيلة، فـأبوها يعمل كلافا فى زريبـة الدائرة، وهى تعمل معه.. إن أكـوام السباخ بالنسـبة لنا ليست مرتع لهـو، ولكنها مكان عمل.. برغم أننا أيامـها كنا نحس باللهو أكـثر مما نحس بالعمل.

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن الشيخ القـماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالـك الوحيد فى القـرية.. ولم تـكن هـذه الحقيقـة تثـير بيننا أى مشـكلة..

لم تكن طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة الخشنة التي تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما كبرنا، لتشدنا أحدنا بعيداً عن الآخر.

وإني أذكر يوما، عندما كنت في العاشرة من عمري، أن قلت لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار :

– بكره تكبري يا سبيلة وأتجوزك وأضربك كل يوم علقة زي عم مدبولي ما بيضرب مراته.

وقالت سبيلة وهي تدير رأسها إلي :

– ما أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيسة بنت عمي بسنتين.

وكانت سبيلة أيامها في السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا في السادسة عشرة، وأصبحت سبيلة في الثالثة عشرة.. عدنا نتحدث عن الزواج.. وكانت سبيلة يومها جالسة بجانب الفرن في دارنا تساعد نساء البيت في الخبيز، وكنت أنتظرها في الحوش المجاور.. ولما خرجت لحقت بها، ووقفنا نتحادث، وهي ترخي عينيها عني، ولمسة حمراء تسري تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا :

– احنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت.

وأجابت وهي تحني رأسها :

– ودي تيجي.. إيش جاب لجاب.. ده أنا خدامتك يا سي مأمون!

ويومها تنبهت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبني بلقب «سي».. سي مأمون.. ولقب «سي» ليس بسيطا.. ليس هينا.. إنه يمثل جدرانا عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن بعض .. جدرانا سوداء اسمها «سي».. وجدرانا أخرى اسمها

« سعــادة البيــه».. وجدرانا ثالثة اســمها « ســعادة البــاشا».. وجدرانا رابــعة اسمــها «افنديـنا».. والغــريب أنه كلما ارتــفعت الألقاب انخفـضت الجدران.. فالجدارُ الذى يفـصل بين «البيه» و«البــاشا»، أقــل ارتفاعــا من الجــدار الذى يفــصل بين «سـى» و«اللاسى».. الجدار الذى يفصل بينى وبين سبيلة، جدار عال.. عــال جــدا.. شــاهق.. أعلى من الهــرم.. أعلى من الجــدار الذى يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفنديـنا.

ولكن.. من الــذى علم ســبيلــة أن تناديـنى بلــقب «سـى».. لا أحد.. لا أنا طلبت منها أن تنــاديـنى «سـى».. ولا أبوها علمها كيف تنطقــها.. ولا أبى.. لا أحــد.. ولكن عقلها تفــتح فســمعت الناس فى دنيــاها ينادوننى «سـى».. ووجدت البنات فى ســنها ومن طبقــتها يعتــبرن أنفسهن خــادمات لى.. ولأبى.. ولأمى.. ولكل عائلتنا.. فــاستسلمت فــى هدوء، وانزوت مع أهلها تحت الجدار الأسود العــالى، ورددت فى خنوع « أنا خدامتك يا سى مأمون»!

والغريب أنى لم أكـتشف هذه الجدران العاليــة السوداء فى عينى ســبيلة وحدها.. ولــكنى اكتشــفتهــا فجأة أمــام عينى أنا أيضــا.. فى صدرى.. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأسود العالى، وانزوى تحــته.. أقف فى الناحــيــة الأخرى التى لا تقف فــيهــا سبيلة.. بينى وبينها هذا الجــدار.. ووجدت نفســى لا أحاول أن اتخطاه.. لا أحاول أن أهدمــه.. إنما أستسلم له، كما اســتسلمت له ســبيلة من الناحــية الأخــرى.. وأحســســت أن كل هذا الحب الذى أحمله لسبيلة لا يكفى لهدم الجدار الأسود.. بل أحسست أن الحب أيضا كان معتــرفا بهذا الجدار.. وأنه نشأ وتربى فى ظله.. وإنى دون أن أتعمد، ودون أن أدرى، كنت أسير دائما مع

سبيلة على ناحيتى الجدار الأسود.. وإن حديثى عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر في صدق عن مستقبل أرسمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر فى واقعى النفسى.. كما أتحدث عن الجنة.. أو عن اعتلائى عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما فى حلها.

وبرغم ذلك فقد مر بنا عمر لم نكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنا خلاله نلعب معا فوق أكوام السباخ، ونركب معا الحمارة.. ولم تكن سبيلة تناديني بلقب «سى» ولا كانت تعتبر نفسها خادمتى.. كانت تعتبر نفسها حبيبتى وزوجتى.. عمر كنا فيه أطفالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يستطيعون اختراق هذه الجدران السوداء العالية.. لا.. إنهم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا.

وتركت يومها سبيلة، وأنا أحس بعاطفتى نحوها ثقيلة ولها طعم جديد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولها طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمرى بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السوداء.. ولكنى كنت كلما أمعنت فى التعالى على عواطفى، أحسست بنفسى أهبط.. أنخفض.. أنزل فى الواطى.

●●●

ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل فى صدرى هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق ينادينى من تحت شجرة الجميز بصوته الذى تمزقه عاهته :

– على فين يا مأمون.

واتجهت إليه جلست بجانبه صامتا.

وتركني رزق كعادته غارقـا في الصمت دون أن يحاول أن ينقذني منه.. ورزق لا يزال يناديني باسمي مجردا.. لا يضيف إليه لقب «سي».. ربما لأنه عبيط.. عبـيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية.

ورزق نشأ فلاحا فقيرا يتيما.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسـرى، ويعرج على قدمـه اليمنى، وفـمه مفـتوح في بلاهة، يسيل منه لعـابه بشكل منفر.. وأعتقـد أهل القرية أن في رزق «شيء لله».. وتركوه يتجول في الأزقـة يفعل ما يريد.. ويدخل أي بيت ليأكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفـضل دائما أن يبقى تحت شـجرة الجميـز، خارج القرية، لا يـقوم من تحتـها إلا تحت اصـرار معـدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أي كـلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائما ـ منذ كان طفلا ـ يحمل تحت ابطه علبة من الصفيح.. علبة متآكلة، صدئة، قذرة، لم يكن أحد من أهل القـرية يعلم مـا بها.. ولم يكـن رزق يسمح لأحـد بأن يرى ما فـي علبته أو حـتى يلمسـها.. وهي دائمـا تحت إبطه.. يأكل وهـي تحت أبطه، ويـنام وهي تحت إبـطه، ويلعـب وهي تحت إبطه.. أصبـحت هذه العلبـة قطعـة منه.. وأهل القـرية يتندرون عـليهـا.. عـلى العلبـة.. ويحكون عنهـا الحكايات.. ويتوهمون أشـياء كثيرة غريبـة في داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلمسها.

أنا الوحيد الذي كان لي حق لمس علبة رزق.

أنا الوحيد الذي كنت أعلم ما بداخلها.

رزق هو الذي أعطاني حق لمس علبته، وهو الذي فـتحها لي لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه

منذ طفولتى حتى لم أعد أعتبره عبيطا، بل كنت ألعب معه وأتحدث، كما ألعب وأتحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا فى العاشرة من عمرى، ورزق يكبرنى بحاولى عامين.. أن التف بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدأوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه فى الهواء ليحمى رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال فى معركة دفاعا عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربونى أيضا.. وأسالوا الدم من وجهى.. وبعد أن أنصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وانحنيت أغسل وجهى من دمائى، ورزق بجانبى ينظر إلى نظرات حب. حب لم أره فى عينى أى صديق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسيل منه لعابه.. ثم جذب العلبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلىّ.. ولمستها كأنى أتبرك بها.

واتسعت الابتسامة البلهاء بين شفتيه.. ثم اقترب منى أكثر.. وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء العلبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لاشاركه فيها.

وكبرت.. وكبر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته استأنستها أكثر.. اصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة المباشرة إلى الأعماق.. وجرأة عجيبة لا تتوافر فى أحد من أهل القرية.. جرأة تصل به إلى الصدق مباشرة دون

لف أو دوران.. جرأة العبيط.. ربما لم يكن عبيطا إطلاقا ولكنه فيلسوف رفعته فلسفته فوق مستوى البشر فبدا كالعبيط.. جريئا، أمعن فى جرأته إلى حد أن الناس لم تعد تصدق جرأته.. لابد أن هذه الجرأة هى أحد مظاهر العبط.. ولابد أنه عبيط.

وكان رزق هو الوحيد من أهل القرية، بل من أهل المديرية الذى يستطيع أن يسب سعادة كامل بك مرتضى، ناظر دائرة الأمير ولى الدين سامح.. ويسبه فى وجهه.. وقد وقف أمامه مرة وهو يهم بركوب «الكرتة»، وصرخ :

– يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال لحمهم مسموم!

ورفع شيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق.. وكتم بقية الفلاحين الذين سمعوه ابتساماتهم.. وما كاد سعادة البيه الناظر يبتعد حتى انطلقوا يضحكون على عبط رزق.. ولكنى واثق أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسون فى أعماق ضحكاتهم بطعم مر.. طعم الصدق الذى نطق به رزق. فسعادة البيه كان يأكل عيالهم فعلا.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشيخ محمد القماش، بكل جلالة وقاره، كان رزق يتجرأ عليه ويصرخ فى وجهه :

– أرفع رأسك يا شيخ.. اتق الله واوع تسود ذقنك البيضة.. اتق الله.. اتق الله.. اوع ذقنك البيضة تسود.

ولم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطىء رأسه كأنه يفكر فيها.. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه فى عينى رزق.

وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول المصاطب فى المساء، فيقول محييا :

- العواف يا نسوان.

وأحيانا أخرى يمر بهم فيقول :

- مساء الخير يا رجالة.

ولم يكن أحـد منهم يدرى متى يحييهم رزق تحية «النسوان» ولا متى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكون دائما كلما مر بهم، وكلما قرأ عليهم التحية.. ولكنى كنت واثقا بأن كلا منهم كان يحس أنه تصرف فى يومه تصرف النسوان، عندما يحييه رزق بتحية النسوان.. وتصرف تصرف الرجال عندما يحييه رزق بتحية الرجال.

وكان رزق فى نظرى - برغم عبطه - هو أكثر الناس فهما لمشكلة قريتنا.

ومشكلة قريتنا كانت فى وجودها ضمن دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وقد كانت حدود دائرة الأمير فى الماضى، تقف خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد، وتتسع.. فكان كامل بك مرتضى يشترى الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك الدائرة.. حتى اشترى كل الأراضى المحيطة بقريتنا.. والناس تبيع إما عن حاجة للبيع، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب ومضايقات الجهات الرسمية.. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف على زمام قريتنا.. وكان فيها خمسة ملاك سقطوا بسرعة الواحد بعد الآخر.. لم يبق منهم سوى أبى.. الشيخ محمد القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها.

ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه.

وفشل كامل مرتضى فى إغرائه بالمال.. لقد عرض عليه فى الفدان الواحد، الف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده.

واشتعلت الحرب بينهما.

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى، فعله.. سرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين سرقوها.. وسلط علينا بنك التسليف.. و.. وفعل الكثير.. ولكن أبى ظل صامدا فى قسوة.. وكان يستمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانوا يؤمنون به.. يؤمنون به كعالم وفقيه فى الدين.. ويؤمنون به كزعيم.. ويؤمنون به كولى من أولياء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه.. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقد كان أبى يحب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طول عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهب خلالهما إلى المركز أو إلى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنى كل أهلها ـ رجالها ونسائها وأطفالها ـ يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية.. وفى كل مساء كانت توضع صوانى العشاء فى القاعة الكبرى، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن توضع أطباق الطعام فوق الصوانى، كان أبى يدخل إلى القاعة بقامته المهيبة، وذقنه الناصعة البياض، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالسين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقور هادىء :

– قوم أنت روح يا أبو اسماعيل.

ويحنى أبو إسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قدميه.

ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب :

- روح يا واد يا شحاتة.

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أو ستة، وأحيانا لا يخرج أحدا، ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته.

وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى حبل المشنقة.. فقد كانت هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحدا من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلا.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع أن أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيمانا منه بأنه فعلا ولى من أولياء الله.. ولا افتعالا لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلا لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقابا لمثل هذا الإنسان أخف من أن يحرمه من الأكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمه أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب إلا من يبيع نفسه.. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان

يزدرى من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا. فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبى يحس بمن تطهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء.. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التى تقع فى أملاك الدائرة.

كانت هذه هى قوة أبى.

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكنات الرى التى تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى فى أرض ليست فى حاجة إليها.. بل كانت تفسد الأرض التى تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد.

وفى المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنبورا أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير القرية، وسرقوا بعضهم من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا فى الترعة ونزعوا منها مواسير مكنات الرى.. ثم ألقى الرجال بالطنابير والشواديف فى مياه «الجنابية» التى تدفقت فيها المياه، وبدءوا يعملون.. أكثر من عشرين طنبورا وعشرين شادوفا.. عملوا طول الليل.

وفى الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت.

وكان الرجال قد رفعوا الطنابير وجرادل الشواديف، وأعادوا مواسير المكنات إلى مكانها.

و.. وجن كامل مرتضى.

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين فى أرض الشيخ القماش، لا يعمل فى أراضى

الدائرة.. وأصبح يسلط عليهم رجال المركز.. ولم نيأس.. أصبح الرجال يعملون فى أرضنا بالليل.. دون أن يدرى أحد.

حوادث كثيرة.

وأخى عبدالرحمن يحمل بندقيته ومعه أثنان من رجالنا، يطوفون طول الليل حول الأرض، وزريبة البهائم، والمخزن، ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة.

وبرغم ذلك.

برغم كل ذلك.

لم يكن أبى ثائرا على الأمير.. الأمير ولى الدين سامح.. كان ثائرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن لو انزاح كامل بك مرتضى من منصبه، فستنصلح الأمور.. بل كان أبى يكتب كثيرا من العرائض والاسترحامات إلى الأمير يشكو له ظلم ناظر الدائرة، ويطالب بعزله.. بل إن أبى حاول أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل بك مرتضى وذهب إليه فى السراى بنفسه أكثر من مرة.

وفى آخر مرة ذهبت معه.

ذهبنا إلى سراى الأمير التى تقع فيها مكاتب الدائرة.

وجلست بجانب أبى على دكة خشبية بجوار باب مكتب كامل بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا حتى الثانية بعد الظهر.. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبى.. ولا أهتم به أحد.. ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل مرتضى، منفوشا، سمينا، له كرش ضخم، ووجهه لون طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه، ووقف أمام أبى ينظر إليه فى قرف، وقد هم أبى واقفا أمامه.. وقال كامل مرتضى فى عجرفة تنطلق من أنفه كالصفير :

– نعم.. افندم.

وقال أبى فى دعة :

– أنا قلت يمكن سـعـادتك مش عـارف اللى بيـحـصل أيه، أصل..

وقاطعه كامل مرتضى صارخا :

– أنا عـارف كل حاجـة.. اسمع يا راجل يا دجـال أنت، إذا مـا كنتش حـتبطل نمردة، وتمشى زى الجـزمة القـديمـة، أنا حاوديك فى داهية، حاحط ذقنك فى الطين.. فاهم.

وارتعش أبى فى غضب، وقال فى صـوت يحاول جهده ألا يكون صراخا :

– أنت ما تقدرش تعـمل حاجة.. فيه اللـى أكبر منك.. واللى أكبر من اللى أكبر منك.

وصرخ كامل مرتضى :

– أنت بترد على يا راجل يا دجال.

ثم رفع كفه وهوى بها على صدغ أبى.

ووجدت نفسى أهجم على كامـل مرتضى أضربه بيدى فى كرشه، وأضربه بقدمى فى ساقه.

وكامل مرتضى يصرخ :

– امش اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره.

وأبى حنى رأسه صامتا.

وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج.

وظل أبى صـامتا، وأنا صـامت بجانـبه أقاوم دمـوعى بكل إرادتى، وما كدنا نقـترب من القرية، حتى تركـته، وجريت إلى شـجرة الجـمـيز، وألقـيت بنفـسى تحتـهـا.. دفنت رأسى فى ترابها.. وبكيت.. بكيت كثيرا.

وعندما انتهت كل دموعى، ورفعت رأسى، وجدت رزق جالسا بجانبى ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يسيل منه لعابه.. وقلت وأنا مازلت أنهنه بالبكاء :

– ضربوا الشيخ القماش يا رزق.. الراجل ضرب أبويا.. ضربه قدامى.

وأحسست بأسياخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها فى صدرى.. الكراهية والحقد.. الحقد على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى الملك.. وعلى الدنيا كلها.

ورزق ينظر إلى صامتا.

ثم لمعت عيناه فجأة.. انزاحت منهما النظرة الحزينة، وحلت محلها نظرة مرحة ضاحكة.. ثم أخرج من عب جلبابه الممزق القذر، حبة جوافة، وقال فى بلاهة :

– خد دى.

ولا أدرى لماذا نظرت إلى رزق ساعتها كأنه منقذى الوحيد.

وأخذت منه حبة الجوافة صامتا، وفى عينى تساؤل، كأنى أسأله عن الطريق.

وبعد يومين.

يومين فقط.

استيقظت القرية كلها على لهب حريق كبير، يشتعل هناك.. بعيدا.. فى زراعة الدائرة.. وخرج الناس كلهم إلى أطراف القرية يراقبون ألسنة النار وهى تلتهم فى سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التى كانت على وشك الحصاد.. وألتفت أبحث بين الناس عن رزق.. ولكن رزق لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه.

واستمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان قمح. فقد كانت الأعواد جافة والريح هائجة.

وجن كامل مرتضى.

وجن الأمير في القاهرة.

وجنت وزارة الداخلية، والمدير، والمأمور، والضابط، والعمدة، وشيخ الخفر.

ودار تحقيق قاس سريع.

وكان يمكن أن يقبض على أبى.. ولكن أبى كان قد سافر منذ يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل مرتضى، وثبت أنه قضى هذين اليومين على باب الأمير.

لم تثبت التهمة على أحد.

حجزوا العشرات في المركز، ولم تثبت التهمة على أحد.

ولم يكن أحد يعلم من أشعل الحريق.. أبى كان صادقا وهو يقسم أنه لا يعلم من الجاني.. وكل الناس لا يعلمون.

أنا وحدى الذى كنت أعلم.

إنه رزق.

وذهبت ليلة الحريق أبحث عن رزق فى كل بيت من بيوت القرية، فلم أجده.. وذهبت إلى شجرة الجميز وانتظرته تحتها.. انتظرته طويلا.. وعند الفجر رأيته قادما من بعيد يعرج على ساقه اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، وصندوقه الصفيح تحت أبطه.. وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعتين اتساعا غريبا، تطلان من خلال الطين الذى يكسو وجهه وتلمعان لمعة الجنون، وصرخ بمجرد أن رآنى :

– شفت النار يا مأمون.. النار.. النار.. النار أكبر من كرش كامل مرتضى.. أكبر.

وجلس بجانبى تحت الشجرة.

وقلت له مبتسما كأنى أستدرجه :

- كنت فين يا رزق ؟

ونظر إلى بعينيه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى يتعثر فى عاهته :

- النار يا مأمون.. النار.. النار..

ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام.. كالطفل البرىء.. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل.. وعلبته الصفيح الصدئة فى يده يضغط عليها بكل أصابعه.

وركزت عينى فوق العلبة الصفيح.

إنى أعلم ما فيها.

أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح الصدئة.

وقد حفظت سر رزق.

ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى رصيد كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين قصة تقول إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى ضريح الحسين، وأشعل عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء، فسقط العود مشتعلا فى بلدنا وأحرق قمح الدائرة.

●●●

وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها.. زوجوها إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة.

واستسلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى بأن الأمر لا يهمنى.. تجمدت.. وازددت انطواء تحت الجدار الأسود العالى الذى يفصل بينى وبينها.. وأصبحت أتعمد أن

أتجنبها.. ألا ألتقى بها.. كأنى كنت أخشى لو واجهتها أن ينهار الجدار العالى.. كأنى فى دخيلة نفسى كنت حريصا على الإبقاء على هذا الجدار العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على حبى.

ولكننا التقينا.. فى صباح يوم زواجها.. التقينا فى حوش دارنا.. ووقفت أمامى صامتة، تنظر إلى بعينيها المستغيثتين.. وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف.. استغاثة كالصراخ.. ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا.. ماذا أستطيع أن أفعل.. كيف أغيثها وأغيث نفسى.. لا شىء أستطيعه.. هذه الجدر العالية قائمة، وستظل قائمة.. إنها أقوى منى ومنها.. ومن القرية كلها.. ومن مصر كلها.. ومن العالم أجمع..

وتمتمت :

- حاتتجوزى الليلة يابت.

وأكدت على كلمة «بت» كأنى أصلب الجدار العالى الذى يقف بينى وبينها.

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينيها المستغيثتين.

وعدت أتمتم :

- والله كبرتى واتجوزتى يا سبيلة.. مبروك..

ولم ترد على أيضا.. وسحبت عينيها المستغيثتين وجرت من أمامى، قبل أن أرى دموعها.

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية.

بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتململ فى صدرى، وتهدر كأنها بركان على وشك الانفجار.. لم يعد شىء يرضينى، ولا شىء يكفينى.. وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به - شعب القرية - أصبح يمثل حدودا ضيقة تلتف حولى كقضبان

السجن.. وعناد أبى وصلابته لم يعد يكفى لإقناعي.. إنى اتطلع إلى حدود أوسع.. إلى معركة أكبر.. وفترات طويلة من الزهق، والملل تنهشنى .

إلى أن نلت الشهادة التوجيهية ، والتحقت بكلية التجارة ، وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شقة صغيرة استأجرها لى أبى فى حى المنيرة.

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبدالحميد أبو الذهب.. طالب فى كلية الحقوق.. يكبرنى بثلاثة أعوام.. من عندنا.. من الدقهلية.. وهو جاد فى مظهره.. تبرق عيناه الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفتاه الرفيعتان مزمومتان دائما كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقطت عن رأسه كأنها احترقت بنار فكره.. وبرغم مظهره الجاد فلم يكن عبدالحميد متزمتا لا ثقيل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى..وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب قلوب الناس.. وهو لم يكتسب قلبى فحسب، بل كسب اقتناعى.. وعلمنى.. علمنى الثورة.. وربما كان أول ما تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى تحيط بى، ليست ظواهر طبيعية.. ليست حقائق علمية كدوران الأرض، وشروق الشمس.. ولكن الذى يصنع الحياة السياسية والاجتماعية هو الإنسان.. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى بلده.. حسب قدرته.. وحسب حاجته.. حسب ضعفه أو قوته.. واقتنعت.. اقتنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة أرادت له أن يجلس عليه.. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله فى

السماء.. وهذه الشخصيات الزعامية التى كانت تملؤنى رهبة وأنا أردد اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل، ولا عباقرة، إنها مجرد ناس.. وكل شىء يمكن تغييره.. أسهل مما تغير فردة الحذاء.

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير.. تغيير كل شىء.. حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا عليها طول عمرى، يجب أن تتغير.. والسخط يستبد بى.. سخط عنيف يعذبنى.. يحرقنى.. وينطلق كألسنة النار ليحرق كل من حولى.. وكفرت بكل شىء.. كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء.. لم أعد أومن بشىء إلا بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر.. الحرية.. العدالة.. الشعب.. التقدم.. و.. و.. وأسير دائما خلف عبدالحميد.. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار.. وأشترك معه فى تدبير المظاهرات، وطبع المنشورات وتوزيعها، وتدبير عمليات التخريب.. وكنت عنيفا حادا، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار الطلبة، وقبض على أكثر من مرة.. ويفرج عنى لأعود أكثر عنفا وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى.. إنه يتسع ليشمل مصر كلها.. ولكنى مازلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق من قريتى.. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير ما يجرى فى قريتى.. أن أعزل كامل مرتضى.. وأن أذل الأمير ولى الدين سامح.. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها.

●●●

وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبتة الفطير المشلتت، والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها سبيلة.

نعم، سبيلة.

حبيبتى سبيلة.

ونظرت إلى سبيلة فى هلـع.. كنت أعلم لماذا جاءت بها أمى إلى.. فقد جرت التقاليد فى طبقتنا ـ طبقة أعيان الريف ـ عندما ترسل أحد أولادها إلى القاهرة ليتعلم، أن ترسل معه امرأة من الفلاحات.. قد تكون مطلـقة، أو قد تكون زوجة.. ولا تكون أبدا بكرا.. لتخدمه، ولتشبع شـبابه حماية له من نساء المدينة.. إنها تقاليد يقـرها الآباء والأمهات ويقرها الفلاحون.. تقـاليد، حتى لو كانت فى حقيقتها نوعا من الدعارة السرية.

وحاولت أن أجادل أمى :

– ليه يا أمه جبت معاك سبيلة.

ونظرت إلى أمى وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة :

– أهى يا بنى تخدمك بدل ما تحتـاج لحد من بتوع مصر.. دى بنت زى الجن.

قلت :

– بس دى مسئوليـة.. وأنا طول النهار برة البيت.. وأخاف أسيبها لوحدها .

وقـالت أمى وذكـاؤها الـطيب المسكين يلمع فـى عـينيـهـا، وابتسامتها الخبيثة تتسع :

– ما تخافش.. أنا ضمناها.. يعنى مش عارف سبيلة.

وعبثا حاولت إقناعها.

وقد عـادت أمى إلى القرية بـعد أيام، ورفضـت بإصرار أن تأخذ معها سبيلة.. تركتها لى.

وقضـيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى.. عروقى تتـمزق.. ضلوعى تـنطبق على صـدرى.. أكـاد لا أسـتطيع أن ألـتـقط

أنفاسى.. وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط.. هل يمكن أن أدعوها إلى فراشى.. هل يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى عشت فيه عمرى كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش.

وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدرى لماذا..ربما اقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح غرفتى حتى وجدت سبيلة مكومة على الأرض بجانب الباب.. ورفعت إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض، وفى عينيها هذه النظرة المستغيثة.

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى.

إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر.

ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش :

- قاعدة هنا ليه يا بت.

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كرعشتى :

- يمكن تكون عايز حاجة يا سى مأمون.

ودون أن أدرى، رفعت يدى وهويت على صدغها.. ثم أنهلت عليها ضربا.. لم أكن أضربها.. كنت أضرب هذه التقاليد.. أضرب هذا الذل.. أضرب نفسى.. وأضرب حبى.. وأنا أصرخ :

- اوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك.. انجرى قدامى.

وجرت من أمامى مذعورة.

ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب.

أتعذب بثورتى.

وأتعذب بشبابى.

وأتعذب بحبى.

وأتعذب بهذه التقاليد.

ثم لم أعد أطيق.. استيقظت فى الصباح، وصرخت فيها :

– لمى هدومك يا بت.

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها المستغيثتين، وعدت بها إلى القرية.. ركبت معها القطار حتى محطة المركز، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر وتنتفض كالعصفور المبلل المكسور الجناح.. ولم أدخل أنا القرية.. انتظرت فى محطة المركز حتى ركبت القطار الذى عاد إلى القاهرة.

●●●

ومرت سنوات.

سنوات عنيفة.. وثورتى تزداد حدة وتهورا.. لم أعد أرى شيئا إلا بريق الثورة.. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشتد عاصفة الثورة حتى تقتلع كل الأشجار، وكل البيوت وكل الجذور.. ودخلت السجن مرة أخرى.. وفى هذه المرة علم أبى، فجاء إلى القاهرة ليتوسط حتى يفرج عنى.. يتوسط لدى من.. لدى الأمير ولى الدين سامح.. وقد أفرج عنى فعلا، ولا أدرى هل أفرج عنى بفضل وساطة الأمير، أو لأن الحكومة رأت الإفراج عنى بلا وساطة.. لا أدرى.. ولكنى أحسست بدمائى كلها تنزف من أعصابى عندما علمت أن أبى كان يتوسط لى لدى الأمير.. إنه لا يعلم أن ثورتى ثورة على الأمير.. إنه لا يعلم أنى سأسير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا الأمير، وكل الأمراء.. سواء سجنت أو شنقت.. ومن هذا اليوم تعودت أن أحتفظ فى البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقدما إلى أبى، حتى إذا سجنت مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها إليه الواحد بعد الآخر، فيطمئن إلى أنى خارج السجن.

وأذكر أيامها أن أبى سـألنى بعد أن أفرج عنى، وهو جالس فى شـقتى بالمنيـرة، ومسـبحتـه بين يديه، والوقار والهـيبـة يكسوان وجهه، ولحيته البيضاء تشع نورا :

- أوعى يا بنى تكون شيوعى.

وسكت.. ترددت.. لم أدر بماذا أجـيـبه.. وعـاد صـوت أبى الوقور يردد :

- إوعى يا بنى.. دول كفرة وملحدين.

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه :

- لا.. مش شيوعى.

والواقع أنى لم أكن شـيوعيـا.. ولم أكن أيضا شـيئـا آخر.. لا شـيوعى.. ولا إخـوانى.. ولا وفدى.. ولا دسـتورى.. فـقط ثائر. ثائر مـن أجل المعـانى المجـردة التى تمـلأ رأسى، وقلبى، وأعصابى.. الحرية.. العدالة.. التقدم.. مصر.

والثورة تستبد بى.

إلى أن حدثت.

تحققت ثورة ٢٣ يوليو.

وبسـرعة .. أسـرع من خيـالى.. سقط كل شىء كـالأوراق الهـشـة المحتـرقـة.. سقط الملك.. وسقط الأمـراء.. وسـقطت الأحزاب.. وسـقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمـير.. لقد استولت الثورة على كل الأرض، ووزعـتها على الفلاحين.. صغار الفلاحين.

وذهبت إلى قريتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض.

ولم يشهد أبى هذا اليوم.. لقد مات فى يوم ٢٦ يوليو.. بعد الثورة بثلاثة أيام.. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.

وفى هذا اليوم.. يوم الاحتفـال بتوزيع الأرض.. اقترب منى

رزق العبيط، وفمه مفتوح، ولعابه يسيل، ثم نظر إلى بعينين خيل إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شيئا أخافه :

– حاسب يا مأمون.. حاسب لتقع.

ثم ضحك ضحكة كبيرة كريهة وانصرف عنى بسرعة كأنه يخاف منى.

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق.. إنه عبيط.

وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة.. راحة عميقة حلوة شملت كل كيانى.. ارتخت أعصابى.. وهدأ قلبى.. وخمدت النار فى رأسى.. إنى أحس أنى أديت واجبى وانتهيت.. من حقى الآن أن أستريح.

ونعمت بهذه الراحة.

ولعلى نسيت قريتنا.

تركت لأخى عبدالرحمن الأربعين فدانا كلها ليديرها.. وبقيت أنا فى القاهرة.

مستريحا.

●●●

وسنوات الراحة تتوالى.

وكان صديقى عبدالحميد قد عين رئيسا لمجلس إدارة شركة المعادن، ولم يرشحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية الحقوق ومحام سابق، لا يفهم شيئا فى المعادن، وإن كان يدعى الفهم.. ولكن رشحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا يستطيع أحد إنكاره.

وعيننى عبدالحميد، مديرا عاما للشركة.. فى الواقع أنه عين فى الشركة كل أفراد شلتنا القديمة.. إن العمل يتطلب تفاهما

وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها، ولا يمكن أن يتحقق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدراسة.

وانتقلت من شقتى فى المنيرة.. إلى شقة كبيرة أنيقة فى الزمالك تطل على نادى الجزيرة.. شقة من شقق الحراسة دلنى عليها صديقى عبدالعزيز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا.. إنها شقة لقطة.. خمس غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر.. ولم أدفع خلو رجل.. ولكنى كنت محتاجا لحوالى الفى جنيه لأشترى أثاثا يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى هاجر من مصر.. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من بنك النهضة، بضمان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار.

إن تأثيث شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد.. لقد قضيت ستة أشهر مشغولا بتأثيثها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها.

وأخذنى صديقى عبدالحميد إلى النادى يوما.. نادى الجزيرة.. ليعرفنى بخطيبته الآنسة نيفين.. إنها ابنة فؤاد باشا خليل.. باشا سابقا طبعا.. وكل شىء فيه سابق.. إنه وزير سابق من وزراء ما قبل الثورة.. وصاحب ألف فدان، سابقا.. وصاحب نفوذ، سابقا.

وعندما قدمنى عبدالحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيقتها مرفت.. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة.. عائلة مرفت.. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما.. كأنى كنت أبحث عنها دائما.. أتطلع إليها.. أتمناها.. إننا نتحدث حديثا

واحـدا.. ونبدو كـأنى أنا وهى تربينا فـى بيت واحد.. ومـرت بخاطرى صـورة السنين الماضيـة عندما كـان يقف بينى وبين مرفت جـدار أسود عـال.. جدار يفـصل بين شاب يمـتلك أبوه أربعـين فدانا، وفـتاة يمـتلك أبوها ألف فـدان.. ووزير.. ولكن الثـورة حطمت هذا الجدار.. حطمـت الجدار الذى يفـصل بينى وبين مـرفت.. ولكن.. الثـورة لم تحطم الجـدار الأسـود الذى يفصـل بينى وبين سبـيلة.. لم تحطم الجدار الذى يفـصل بين «سى» و«اللاسى».. و..

وطردت كل هذه الخواطر مـن رأسى بسرعة.. مـالى ومال سبيلة الآن.. مالى ومال القرية.. إن عـملى ومسئوليتى هنا فى القاهرة.

ولم أكن أذهب إلى القـرية خـلال هذه السنوات إلا مـرة أو مرتين فى العـام.. لأقضى فى كل مرة، يوما أو يومـين.. وكان رزق العبيط كلـما ذهبت يجرى إلى وهو يعرج بقـدمه اليمنى، ويرفع كتـفه الكتـعاء، العلبـة الصفيح الصـدئة تحت إبطه، ثم يبحلق فى وجهى، ويصـرخ بصوته المشلول :

– والله وقعت يا مأمون.

ثم يعـود ويجرى من أمـامى كأنه يهـرب منى، وضحكـته المجنونة تمزق أذنى.

أف.. لقـد بدأت أزهق من رزق.. لماذا يتـركون هـذا العبـيط مطلق السراح هكذا فى أزقة القرية.. إنه إنسان خطر.

وكنت أقضى اليـوم أو اليومين فـى القرية، وأنا أرقب أخى سـاخـرا وهو يحاول أن يـقلد أبى.. يجلس جلسـتـه.. ويلبس عمامته.. ويمـسك مسبحته.. ويتحدث بصـوته العميق المتزن.. ويمـد فى كل لـيلة صـوانى العـشـاء. ولكن المـلتـفين حـول

الصـوانى، تغـيـرت وجـوههم.. إنهم ليـسـوا من أهل القـرية وفلاحـيها.. إنهم ضـابط المركز، والعـمدة، وموظفـو الـجمعـية التـعاونيـة، وأعـضاء الاتحـاد الاشتـراكى، ومـوظفو الوحـدة الاجتماعية.. و..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى فى حوش الدار.

إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التى زرت فيها القرية.

ولا أدرى كيف حـدث ليلتـها كل هذا.. لا أدرى مـاذا حدث لى، ولا أى شيـطان ركبنى.. فقـد ذهبت إلى غرفـتى فى الدار، بعد أن جلست مع أمى، وحضـرت مجلس أخى.. وقبل أن أخلع ثيـابى، رأيت سـبيلـة تمر فى القاعـة الخـارجـية، فناديـتهـا.. واقتربت فى خطوات مترددة ووقفت عند الباب، وهى تنظر إلى بهاتين العينين المستغيثتين.

وقلت لها بلهجة آمرة.. لهجة السيد.. إنى سيدها فعلا :

- خشى يا بت.

ووقفت جامدة عند الباب.

فتقدمت منها وجذبتها من يدها فى عنف، وأنا أصرخ :

- باقولك خشى.

وأدخلتها غرفتى.

وأغلقت وراءها الباب.

وألقيتها على فراشى.

وشهوة قاسية، عربيدة، مجنونة، تستبد بى.

لم أكن أشعر بجسد سبيلة.

ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها.

ثم..

عندمـا أطلقتـهـا.. وخرجت من غـرفتى تـترنح كـالفرخـة

المذبوحة.. أحسست بنفسي أتضاءل.. وأتضاءل.. إني صغير. إني حقير.. وألم كوخز الإبر ينطلق في صدري.. ألم فظيع.. وانكفأت على وجهي أبكي..الرجل يبكي.. الثائر يبكي.. المدير العام يبكي.

وخرجت في الصباح أطوف بالدار، منكس الرأس.. جلست مع أمي وأنا لا أستطيع أن أرفع عيني إليها.. وجلست مع أخي وأنا أنظر بين قدمي.. وقابلت الناس وجلست وجفوني مسدلة.. كأني كنت أخشى أن يكتشف أحد أني انتهكت عرضا.. عرض القرية كلها.

وجاء رزق العبيط إلى البيت، ونظر في وجهي ثم صرخ :

– كده يا مأمون.. كده تقع يا مأمون.

وهربت منه.

إني أخافه.

وسألني أخي في المساء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت صواني العشاء :

– صحيح الكلام اللي بيقولوه ده.

قلت وأنا مازلت منكس الرأس :

– بيقولوا إيه.

وقال أخي في حدة :

– بيقولوا إنهم حايحددوا الملكية بعشرين فدانا.

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال ، كان فيه تمرد، وسخط، وتربص.. ورفعت رأسي في وجهه وفتحت عيني كأني رأيت الطريق الذي يقودني إلى أن أرد للقرية عرضها الذي سلبته :

– ياريت يا شيخ.

وأشاح أخي بذراعه في وجهي وهو يقول :

- والله أنتم حاتودوا البلد فى داهية.

ثم قـام إلى القاعـة وأنا أسيـر خلفـه، وأنظر إلى قفـاه فى شماتة.. شماتتى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فدانا.

وانتهى العشاء.

وانفض مجلس أخى.

وما كـدنا ننصرف إلى النـوم.. حتى علا صـراخ عنيف فى القرية، نزعنا جـميعـا من أسرتنا.. وجـرينا إلى الخارج ورأينا الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد.

إن الحريق فى أرضنا.

أرض أخى.

وهرع أخى إلى أرضه وخلفـه خمسة من رجالـه المدججين بالسـلاح.. وبقـيت أنا فـى مكانى، وعلى شـفـتى ابتـسـامـة مسكينة.. إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.

إنه رزق.

رزق العبيط.

ولن أدل أحدا عليه.

ولكن.

لماذا أحرق رزق أرضنا ؟

وبقيت فى القرية لأكتشف ما جناه أخى عليها.

لقد اسـتطاع أخى أن يضع جـميع أفراد عـائلتنا فى قـائمة المعـدمين الذين وزعت عليـهم الأرض، وأضـاف إليـهم أسمـاء جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى الحب، والميـاه، والكيـماوى.. و.. و.. وفـى آخر العـام يخـتص

نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شيء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطالب بالإيجار مقدما.. و.. و..

وضج أهل البلدة من جشع أخى.. وبدأوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى.

وقبل أسبوع ذهب عوض اسماعيل إلى أخى، ليحاول اقناعه بعدالة مطالب أهل البلدة، فاحتد عليه أخى، وصفعه.

كما صفع كامل مرتضى أبى.

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير.

وقررت أن أعمل.. أن أتحرك.. أن أحاول استرداد صداقة الفلاحين وثقتهم بنا.. ولكن عبثا.. إنهم يستقبلوننى كما كانوا يستقبلون كامل مرتضى.. وينافقوننى.. ويكذبون على، كأنى عدو لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه.

بقيت شهرا فى القرية.

ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ :

– والله وقعت يا مأمون.

ثم يهرب منى.

●●●

وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق.

لقد أراد بعض شباب القرية أن يداعبوه، فتركوه نائما تحت شجرة الجميز، وسرقوا علبته الصفيح من تحت ذراعه.

واستيقظ رزق.. وعندما لم يجد علبته، جن.. وجرى وراء الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض، وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العلبة.. العلبة» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات.

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول :

– العلبة.. العلبة.

وهم يضربونه على قفاه.

وسجنوه في سجن المركز.

وقد درت أياما أبحث عن علبة رزق.. العلبة الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدتها ملقاة فوق أكوام السباخ.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدى بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة فى عينيه.. والتقطها منى فى لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت فى عينيه هذا الحب الذى لم أره فى عينى صديق آخر.. ورأيت فى عينية شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التى كان أبى يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلنى.. تغسل روحى.. تغسل قلبى.. تغسل عقلى.. تطهرنى.

ومد رزق إلى يده بالعلبة، وقال بصوته المحشرج الذى تمزقه عاهته :

– خليها معاك.. أمانة.

قلت :

– دى علبتك يا رزق.

قال وهو يبتسم ابتسامته البلهاء :

– علبتنا احنا الاثنين.

ثم أدار لى ظهره، وتركنى، وسـار بقدمه العرجاء ، وكـتفه الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز.

●●●

والقطار يعود بى إلى القاهرة.

– العلبة الصفيح الصدئة فى جيبى.

لا أعلم إلى متى أسـتطيع أن أحتفظ بهـا، وهل لى من القوة ما يعيننى على الاحتفاظ بها.

لا أدرى.

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت.

كـل هـذا الحـب

متى رأيتها لأول مرة ؟..
لا أدرى..
ولا أدرى متـى اكتـشـفت أن مابيـنى وبينـها
هو الحب.

لقد فتـحت عينىّ على الحياة وهى فيـها.. تسكن فى حينا.. حى حـدائق القـبـة.. فى نفس الشـارع.. فى البـيت المجـاور.. والعائلتان تتزاوران.. وهى صديقة لأختى.

وكنت أكبرها بعامين.

ووجـدت نفسى دائمـا مـعهـا.. منذ كنت تلميذا فى روضـة الأطفال، وأنا أعود من المدرسة لأجدها فى بيتنا تلعب مع أختى .. وكنت ألعب مـعـهـمـا .. لا لم نكـن نلعب .. كـانت أخـتى عـادة تنصرف إلى اللعب، وأجلس أنا وصفـية نتحدث.. ربما كنا نحكى حكايات الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثـا هادئا ناعما.. ليس فيه صراخ الأطفال ولا مـشاداتهم.. وكانت صفيـة، ونحن مازلنا فى

ذلك العمر، تشعرنى دائما بأنى أكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ماأقوله وهى مبهورة مستسلمة، كأنى أفتح لها أبواب دنيا عجيبة.. وكنت أنا أحس - منذ ذلك العمر - بإحساس غامض بمسئوليتى عن صفية.. كنت أدخر نصيبى من مكسرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشيكولاتة التى توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطى لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشارع.. لألعب أنا الكورة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى التفت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شئ.. أى شئ.. كأن وقعت وانجرحت ركبتها، أو عاكسها، أحد الأولاد، جرت إلىّ باكية، وهى تصرخ :

- محمد.. محمد.

ثم تشكو إلىّ.

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانت العائلتان معترفتين بهذا الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الإندماج.. لا أدرى ماذا أسميه.. ماذا أسمى ما كان بينى وبين صفية ونحن مازلنا طفلين.. لا ادرى.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية :

- محمد وصفية راحو فين ؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة.

- روحى شوفى محمد وصفية فين ؟

دائما، محمد وصفية.

وربما كانت هذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى

هذا الطفل الهادىء، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلا أكبر من عمرى.. لم أكن متعاليا على أصحابى الذين فى مثل عمرى.. ولا جافاً.. لا.. كنت ألعب مع الأطفال، وأتحدث حديثهم، ولكنى كنت أكثر منهم جدية.. أو على الأصح كنت أكثر منهم اكتفاء وشبعا عاطفيا.. لم أكن أرتكب حماقات الأطفال.. لم أفكر يوما فى أن أعاكس المدرس.. أو أسرق شيئا من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلا فى عمر الأطفال.

ثم لا أدرى متى بدأ يتطور حبى لصفية.. ربما عند ما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشفتيها.. وتسريحة شعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطوتها فى مشيتها.

وبدأ هذا الإحساس الجديد يقلقنى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجرد حقيقة بديهية فى حياتى، بل أصبحت موضوعا يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى اللهفة عليها.

لم أعد أعود إلى البيت وأنا واثق من أنى سأجد فيه صفية.. أصبحت أتساءل هل سأجدها فى البيت.. ويغوص قلبى عندما يداهمنى الاحتمال بأنى قد لا أجدها.. وعندما كنت طفلا لم أكن واثقا ولا حائرا.. ولم أكن أعود إلى البيت لا ملهوفا، ولا غير ملهوف.. إن كل هذه العواطف والانفعالات.. الثقة والشك.. والتأكد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنسان إلا عندما يبدأ الإنسان فى صنع حياته بنفسه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة.

وكنت دائما - إلا نادرا - أجدها فى البيت.

وكنت ألمح فى عينيها نفس الحيرة التى أعانيها.. الحيرة فى عواطف وأحاسيس بدأت تملأ صدرها كالبخار، دون أن تفهمها أو تعرف من أين انطلقت ولا إلى أين تستقر.. وكان يبدو أنها لم تعد تأتى إلى بيتنا تلقائيا، ولكنها كانت تأتى عن عمد، وقد بدأت تعرف أنها تأتى لترانى، لا لتزور أختى.

وتطور حديثنا.. كبر.. لم يعد حديث أطفال.. ولا حديث ناضجين.. ولكنه حديث هذا العمر الحلو الذى يختلط فيه الخيال بالواقع، وتبدو فيه البديهيات كأنها اكتشافات، ويبدو فيه كل شئ كأنه شئ جديد يثير الدهشة.. ولكن صفية خلال أحاديثنا لم تتغير، إنها لا تزال دائما تشعرنى بأني الأكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وأنى المسئول عنها.. تكاد تشعرنى بأنى رجلها.

وأنا أكبر.

وكلما كبرت عذبنى شئ غامض لم أكن أدرى سره.. ولكنى أشعر به كلما استوعبت عيناى تفاصيل أكثر من الخطوط التى ترسم صفية.. خطوط وجهها.. وخطوط قوامها.. وهذه الخصلة من شعرها الناعم التى تقع أحيانا فوق جبينها، فتزيحها بيدها كأنها تنهرها.. وهذه النظرة المتسائلة المترقبة التى تطل من عينيها كأنها تبحث عن شئ جديد.. وهذه الابتسامة الهادئة الناعسة التى ترقد فى استسلام بين شفتيها، كأنها مستسلمة لى.

وقد عرفت الآن أنى أحب صفية.

ولكنه ليس الحب الذى يعذبنى.. إنه شئ آخر.

شئ ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه.

وكان هذا الشئ يتطلب كل إرادتى ، إرادتى الفجـة الصغيرة لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة، انتـابنى شعـور غـريب بالخوف.. نعم، الخـوف.. لا أدرى من مـاذا.. ولكن بدأت تمر علىّ فتـرات كـثيـرة أشعـر فيـها بهـذا الخوف.. الخوف على حبى.

وفى هذه السن.. وكنت فى الخـامسة عـشرة، وصفـية فى الثالثة عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوّى حاجبيها بالملقاط وثرت على غير عادتى، وصرخت فيها :

– إيه اللى عاملاه فى حواجبك ده ؟

ونظرت إلىّ بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول :

– مش عاجبينك ؟

قلت وأنا مازلت أصرخ :

– لا.. مش عاجبنى.

ونظرت إلىّ صـفيـة برهة ثم انبثـقت الدموع من عـينيـها، وجرت من أمامى وهى تبكى.

ولم أشـعـر يومـهـا بدمـوع صـفـيـة، ولا جـريت وراءها لأصالحها، فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف.. الخوف الذى بدأ ينتابنى منذ شـهور.. ولكنه فى هذا اليوم كان خوفا أكبـر.. أحسست أنى بدأت أكتـشف سر هذا الخوف.. إن صفـية تكبـر أسرع مما أكبـر.. إنها ليـست أصغر مـنى.. إنها أكبـر.. وستكبر أكثـر.. وأكثر ولن أسـتطيع أن ألحق بها أبدا.. ستضيع منى.

ولم تعد صفية إلى تسوية حاجبيها بالملقاط.

وكنت ألحظ الشعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون أن تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشئ.. ولا حتى أشعر بالامتنان لها لأنها أطاعت كلامي.. فقد كنت أشعر بالغيظ.. الغيظ منها لأنها تكبر فى عمرها أسرع مما أكبر فى عمرى .. وامتناعها عن تسوية حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن يعيدها إلى عمرى.

وجاءت يوما.. ودخلت هى وأختى إلى حجرتى.. وكنت جالسا إلى مكتبى أستذكر دروسى .. والتفت إليهما وبدأنا نتحدث.. وقد كنت ألاحظ فى نفسى أنى بدأت أتحدث كلما كانت صفية معى بلهجة فيها كثير من التعالى والغرور، كأنى أحاول دائما أن أقنعها بأنى أكبر منها، ومازلت أفهم مالاتفهمه.. مازلت رجلها.

وتركتنا أختى وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما تعودت أن تفعل فى كثير من الأحيان.. لا تعمدا منها، ولكن لأن صفية لم تكن أبدا ضيفة فى بيتنا.. إنها واحدة منا.

وانحنت صفية على مكتبى تقلب فى الكتاب الذى أقرأ فيه.. كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفسى فجأة أعانى هذا العذاب الذى عانيت منه طويلا.. أعانيه وصفية قريبة جدا منى.. كتفها تلامس كتفى.. وعطر أنفاسها يملأ أنفى.. وشعرها الناعم المسترسل يهف على وجهى.. وهى تتكلم.. ولكنى لا أسمعها.. إن كل حواسى مركزة فى استجماع إرادتى لأقاوم بها هذا العذاب الذى يمزق عروقى.. وبدأ كلام صفية

يتقطع.. ثم صمتت.. وأنا صامت.. ومضت برهة طويلة.. طويلة.. ونحن صامتان.. ثم رفعت إلىّ عينيها.. والتقت نظراتنا لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا مبهورة.. وشئ كصهد النار يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من وجهها.. ثم استقر خدها على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت وجهها فى انتفاضة كأنها خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة خارج الغرفة.. خارج البيت.

وكانت هذه قبلتنا الأولى.

أول قبلة فى حياتها.

واول قبلة فى حياتى.

ولم تكن قبلة.

كانت مجرد لمسة.

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش.

ولم أستطع النوم ليلتها.

إنى مازلت أرتعش.. وفى طيات رعشتى أشياء كثيرة.. فيها عذاب، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة.

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا تبحث عنى.. وأعطتنى كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما وعدتنى.. كتاب من كتب المدرسة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب اكتشفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبته لى صفية.

أول كتاب تكتبه لى.

وبدأنا عصر الخطابات.

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا..

فلم تعد صفية تأتى إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامسنا بدأ يرتبط بالواقع الإنساني.. وهو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه ونتعذب به.

وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمسة أيام، تبادلنا خلالها فى كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهى ضيفة.. وصففت شعرها بعناية كأنها ذاهبة إلى حفلة.. وعندما نظرت إلى حاجبيها لاحظت أنها عادت وسوتهما بالملقاط.. ولم أثر.. ولم أغضب.. لقد شعرت يومها أنها سوتهما من أجلى.. حتى عندما شعرت أنها تجملت بحيث تبدو كبيرة.. لم أغضب، فقد شعرت أيضا أنها كبرت من أجلى.

ولم نستطع يومها ولا بعدها، أن نتبادل النظرات بنفس البساطة التى كنا نتبادلها بها.. ولم يستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس السهولة التى كانت تجرى بها.. كان كل منا يعلم أنه أصبح فى حاجة إلى أكثر من النظرات وأكثر من الأحاديث.. وكل منا يترقب اللحظة التى ستتركنا فيها أختى وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختى تتباطأ فى الخروج عن عمد.. لتغيظنا.

وبرغم ذلك فعندما خرجت أختى تسمرنا فى مكاننا.. احترنا ماذا نصنع.. كيف أقوم من مكانى إليها، وكيف تقوم من مكانها إلىّ.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدنا من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر واللهفة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر فى عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر فى عينىّ.. ثم فجاة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن

ونشيخ ونحن متباعـدان.. اندفع أحدنا إلى الآخر.. ورقد خدها على خدى.. وقلبـى يخفق بخفـقات قلبهـا.. ثم طافت شفـتاى تمسـحان على خدها.. من الذى علـمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحـساسـيـة.. كل هذه المعـانى..كل هذه الدنيـا.. لست أدرى.. ورئتاى تـتنفسـان من أنفاسهـا.. وأعصـابى تنبض بنبـضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدنا عن الآخر.. كيف تنتهى القبلة.. ولماذا تنتـهى.. بل لماذا تتوقف، لست أدرى.. وهـى تنظر إلىّ بعينين مبـهورتين، مالبثتـا أن ارتختا ونامتا تحت جـفنيها كأنهـما طفلتان شبـعتا.. وخرجت أنا من الحـجرة فى خطوات بطيـئـة كـأنى أسـيـر على قطـع من السـحـاب.. وذهبت إلى حـجـرتى.. ورقدت فـى فراشى.. مـسـتـسلمـا فى هدوء إلى رعشتى.. رعشة قلبى.

وكان هذا هو كل مابيننا.

هذه القبلات.

وهذه الخطابات.

●●●

وكنت فى الثـامنة عشـرة، وصفـية فى السـادسة عـشرة، عندما خطبت، خطبت صفية إلى رجل يكبرنى باثنى عشرعاما، ويكبرها بأربعة عشر عاما.

وتلقيت الخبر فى استسـلام عجيب، كأنه حدث كنت أنتظره منذ زمن طويل.. ربما منـذ ولدت.. وكان إحـسـاسـى بانتظاره مختـبئا فى منطقة اللاشـعور.. أشياء كثـيرة ننتظرها دون أن نحس بانـتظارها.. الموت.. إننا ننـتظر الموت دون أن نتـعـمـد

انتظاره.. ومــهـما بكينا وصرخنا فــإننا لانسـتطيع أن نصــد الموت.. ولا نحــاول أن نعــيــد الحــيــاة. إننا فى قــرارة أنفــسنا مستسلمون له، وكنا دائمــا فى انتظاره.. وكذلك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانت التقــاليد الاجتماعية مــتمكنة منها ومنى إلى حد الإيمــان.. كالإيمان بالمــوت.. فلم نحاول أن نثور، كـما لا يثور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهـرب، كما لا يهرب الناس من الموت.

وحــدد يوم الزفاف على عــجل.. بعــد أسبــوعين.. فــالرجل مسافر فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه.

ولم أر صــفية خــلال هذين الأسبــوعين.. وكـنت خلالهــما أعيش صــامتا واجـما كالمصــعوق وأتحرك فى خطوات بطيـئة متئدة كأنى أحكم الحكمــاء أو كأن فى صدرى قنبلة أخشى أن تنفجر لأقل حركة.

وفى صباح يوم زفافها جاءت.

جاءت إلى بيتنا.

شعــرها مهوش فــوق رأسـها.. ووجهــها ممتقع.. وبصــمات الأرق تحت عينيها.. وشفتاها ترتعشان وقد بهت لونهما.

واتجهت إلى غرفتى مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى.

وألقت نفسـها بين ذراعىّ.. ورأسـها على كتفى.. ثم أجهشت بالبكاء.. وهى تتمتم :

– محمد.. محمد.

ثم أخذت وجـهى بين كتفيــها.. وأصابعــها ترتعش.. وألقت بشفتيها بين شفتىّ.. قبلة كبيرة عصبية عنيفة.. ليس لها طعم،

عنقها يغلب طعمها.. كـأنها كانت تحاول أن تأخذ منى فى قبلة واحدة مايكفيها عمـرها كله بعيدا عنى وأختى كانت واقفة على الباب، تنظر إلينا، وتبكى.

إن أختى خـطبت فى نفس العام.. قـبل صفيـة.. ومن يدرى ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته.

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى قبلة صـفية.. لم أبك مـعها.. ولا لففـتها بذراعىّ.. ولا بادلتـها قبـلتهـا.. ولا كلمة.. إنى جـامد.. كل شئ فىّ قـد توقف.. وكل ماحولى توقف.. إنى ميت.

وجرت صفية خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.

وأنا جامد.

ميت.

وفى المساء كان مفروضـا أن أذهب إلى حفل الزفاف.. وأمى تتعجلنى - ياللا يامحمد.. مايصحش نروح متأخرين.. ده احنا أهل.

وخرجت وراء أبى أمى وأختى.. وأنا مـازلت جامدا.. تائها.. أسير فى خطوات ساهمة وئيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى أخـشى فى كل خطوة أن تنفـجر.. ومـا كـدت أقتـرب من بيت صفـية حتى دهمـتنى أضواء الزينة.. حرقت عـينىّ وأصابتنى برعشـة كرعشـة الحمى وخـفت.. هلع .. أحسست بـالمصابيح الملونة كأنها عـيون شياطين تنطلق فى وجهى.. كـأنها فوهات مدافع تطلق علىّ النار.

وتراجعت فى خوف.

تركت أبى وأمى وأختى يدخلون.. واستدرت أنا وجريت.. جريت بكل قواى.. قواى.. جريت إلى أن اجتزت حى حدائق القبة.. ثم هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت.. سرت طويلا.. وأسياخ من الألم تشق كل قطعة منى.. سرت إلى أن وصلت إلى صحراء العباسية.. وأقدامى قد ثقلت وهى تتعثر فوق الرمال.. والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى شيئا.. والألم.. ألم قاس.

ثم شعرت بشئ يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى.. أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكى معى.

وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء.. والمرة الأخيرة.

ورطب البكاء أعصابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، واذا بى ألمح نورا.. نور ينطلق من داخلى.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب لا يزال معى..لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا آخر.

والحب هو صفية.

وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز وتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصافير لتنفض عنها الندى.

وعدت.

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسى.. ورقدت فى فراشى لأقرأ كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم.

●●●

كم مضى ؟

عشر سنوات.

وقـد حـدثت أثناء هذه السنوات أشـيـاء كـثـيـرة.. نلت بكالوريوس الهندسة.. واشتغلت مـهندسا فى إحدى الشركات.. وتزوجت أختى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش، وفضل أن يـأخذ أمى وبقيـنا فى بلدتنا.. واستـأجرت أنا شـقة صـغـيرة فى شارع القـصر العينـى، جمعت فـيها كل حـياتى.. كتبى.. واسطـواناتى.. ومائدة الرسم.. وهذه الأشياء الصـغيرة الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها.

شئ واحد لم يتغير خلال هذه السنوات.

حبى.

صفية.

إنى أعـيش فى انـتظارها كل يـوم.. ليس انتظارا.. ولـكنه انتظار يسرى فى هـدوء خلال أعصـابى، كما تتـردد أنفاسى. انتظار كـانتـظار المتـصـوف للقـاء ربه.. انتـظار حلو هادئ، مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر سريع.. إنها قد تكون صفية.. وكلما دق جرس التليفـون رفعت السماعة بلهفة فقد تكون صـفية.. وكلما ذهبت إلى زيارة أخـتى خيل إلىّ أنى سأجـد صفية مـعها.. وكلمـا ذهبت إلى حدائق القبـة ومررت ببيـتنا القديم خـيل إلىّ أنى سأجـد صفـية تطل من الشـرفة.. وأخـرج خطاباتهـا وأقـرؤها ولم أكن أقـرؤها بعـينىّ.. ولكنى أقـرؤها بأذنى.. إنى أسـمعـهـا.. ليس مـجرد خـيـال.. ولكنى أسمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

كان هذا الانتظار هو نبضى.

ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة.

ولا حتى امرأة عابرة.

هل هذا شذوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو ما نريده..وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية.

وأمى تلح علىّ فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد أن فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى. لا.

وفى يوم.

بعد عشر سنوات.

دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة.

وما كدت أسمع كلمة : ألو.. حتى صرخت :

- صفية.

لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت.

وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى هذه اللحظات أن نسترد كل ما فاتنا من كلام خلال عشر سنوات.. ومن ضحكات.. ومن عتاب.. و.

واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادىء منزو فى شارع الهرم.

هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت تمر بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمنت أن تجلس فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى.

والتقينا.

ووقفنا ينظر كل منا للآخر وبين شفاهنا ابتسامتان حائرتان مترددتان لا تدريان أى معنى تحملانه.

ولكنى وجدت نفسى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة.. وصفية تعود إلى السادسة عشرة.. ربما كانت صفية قد سمنت قليلا، وربما كان فى حديثها معان لم أسمعها منها من قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادسة عشرة.. لم تمر بنا عشر سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس.

ويدى فى يديها.

ونتكلم.

لم تترك يدى يدها.

ولم نكف عن الكلام.

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون.

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقاؤنا الثانى بعد أسبوعين.

فى شقتى.

وأحاسيسنا أكثر نضجا.

وقبلاتنا أكثر وعيا.

وكانت صفية أول امرأة فى حياتى.. كما كانت أول فتاة فى حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة.

وصفية ؟!!

لا.. لا تقلها.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنسان له حياة عامة يعطيها للمجتمع، وحياة خاصة يحتفظ بها لنفسه.. إنه دين عليك نحو المجتمع الإنسانى أن تخصص جزءا من حياتك له.. والجزء العام.. أو

الحيـاة العامـة.. وإلا كنت إنسانا أنـانياً تافـها.. ودين المجتـمع الإنسانى نحوك أن يترك لك حياتك الخاصـة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعـتدى بتصرفـاتك على أحد.. وحياتى العـامة التى أعطيها للمجتمع، هو عـملى كمهندس.. والحياة العامة التى تعطيها صفية للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر ».. إنه مجرد عمل.. كعملى فى الشركة.. وأنا أحترم زوج صفية احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه فى حالات كـثيرة تستطيع المرأة أن تجمع فى بيتـها بين حيـاتها الخاصـة وحياتهـا العامة.. كـأن تتزوج رجلا تحبه.. ولكنها إذا لم تسـتطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حيـاتها الخاصة، ولا يعـفيهـا من واجبها نـحو تقديم حيـاتها العامة للمجتـمع.. أن تقدم للمجتمع شيئا.. ولو كـانت صفية قد استكملت دراسـتها وقدمت للـمجتمع عـملا، كأن تكون طبيـبة لأعـفاها هذا من الزواج من شـخص لا تحـبه.. ولكنهـا لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع ألا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت.

هل تفهمنى ؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل.

وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقراقـة، بينى وبين صفية.. كانت تحـادثنى صبـاح كل يوم فى التليفـون.. لا تحادثنى فى المسـاء، ولا فى أيام الجمع.. ونتـلاقى فى فتـرات متـباعـدة.. أحيانا كل أسبوعين.. وأحيانا كـل شهر.. وكانت أحيانا تسافر مع زوجها عندمـا ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغـيب شهورا..

وفى مرة غابت سنتـين.. وأنا أنتظر.. هذا الانتظار الذى يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تسرى أنفاسى.

ولم نعتد على أحد بحبنا.

بالعكس.

إنى عندمـا استكـملت سعـادتى بحـبى، استطعت أن اقـدم إنتاجـا أكثر فى عـملى.. وعندما سعـدت صفيـة استطاعت أن تضفى على بيتـها وأولادها سعادة أكـبر.. أن الإنسان الناقص لا يمكن أن يقـدم شيـئا كـاملا.. وأنا لم أكـتمل إلا بصـفيـة.. ولم تكتمل صـفية إلا بى.. وعند مـاالكتملنا اسـتطعنا أن نقدم للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا.

●●●

كم مضى ؟

عشرون عاما.

أصبـحت فى الثامنة والخـمسـين من عمـرى، وصفـية فى السادسة والخمسين.

واتصلت بى بالتليفون وصوتها يرتعش.

لقد مات الزوج ؟؟

وكنت أول من تبلغه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إلىّ كلما ألمّ بها حدث.

وحزنت صفية على زوجها حزنا عميقا صادقا.

وحزنت معها.. حزنا حقيقيا، لا رياء فيه.

ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد حزننا إلى ذكرى عاطرة.

وأنا وصـفيـة كـما نـحن.. تتصل بى صـبـاح كل يوم فى

التليـفون.. لم تكن تتـصل بى فى المساء، ولا فى أيام الجـمع.. حتى بعـد أن مات الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فـترات متبـاعدة.. أحيانا كل أسبوعين وأحيانا كل شـهر.

ثم قلت لها :

– أظن من حقنا نتجوز بأه يا صفية.

ورفعت إلىّ عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت.

ولم يكن هناك مـايمنع مـن زواجنا.. فأولادهـا قد كـبـروا واستـقل كل منهم فى بيته.. وهى مـصممـة على ألا تعيش مع أحد منهم.. إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها.

ولكنها ظلت صامتة.

وعدت أقول :

– إيه رأيك ؟!

وتلونت وجنتهـا بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رمـوشها فوق عينيها :

– مش عـارفه يامحـمد.. أنا عـمرى مـافكرت إننا نتـجوز.. متهيأ لى إن حبنا أكبر من الجواز.

قلت :

– حبنا من حقه يستريح ولو اليومين اللى فا ضلين.

قالت :

– أنا خايفـة يا محمـد.. خايفة على حـبنا من الجواز.. مش عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجة جديدة.

وفى الواقع أنى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد. لقـد عاش حـبنا طويلا، واكتـسب عادات مـعينة، وطريقـة

للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التى وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل مافيه.

ولم نتزوج.

أصرت صفية على ألا نتزوج.

ومضت ست سنوات ولم يزد علينا شئ، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التى لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل.

ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حدائق القبة.

ثم مرضت صفية.

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التى أزورها فيها فى بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته.

وقالت فى ضعف :

– ماكنتش عيزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد.

إنها لا تدرى.

لا تدرى أنى مازلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة عشرة.. أراها بعينيّ، لا بخيالى، ولا بأوهام حبى، أرى عينيها الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين المملوءتين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء،

وشعرها الأسود المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها الفتاة التى أحبها.

وذات ليلة.

صحوت منزعجا من نومى.. وارتديت ثيابى بسرعة، وجريت إلى الجراج، وقدت سيارتى إليها.. إلى صفية.. والساعة حوالى الثالثة صباحا.

فضغط على جرس الباب.

وعدت أضغط بإصرار

يجب أن أراها الآن.. الآن.

وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل، وشفتاها ترتعشان.. وفتحت عينيها عند ما اقتربت منها.. وبرقت ابتسامة خاطفة بين شفتيها.. وسمعتها تهمس.

— محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدى.

●●●

إنى الآن فى السادسة والستين من عمرى.

وقد مضت أربع سنوات وأنا فى انتظار صفية.. هذا الانتظار الهادىء المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما تسرى أنفاسى.. وأنا واثق أنها ستأتى يوما وتدعونى إلى لقائها فى مقهى صغير منزو ترفض أن تجلس فيه إلا معى.

مقهى فى الجنة.

الله .. الله .. يا ست

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديرى العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو.

وكان أول الوافدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا :

– ازيك يا أبو السباع.. وحشتنا.

وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقعة القبلات.

وقالت حرم محمد برعى :

– ازيك يا إنصاف.. ازى عروستنا الحلوة.

وقالت إنصاف وشفتاها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة :

– ازيك إنتى يا دودى، وإزى الولاد.

وشدتها دودى من يدها وجلستا فى الركن البعيد من غرفة الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه اسماعيل سكر وجلسا فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول :

– اقعد يا اسماعيل.. إزى الحال.. خصموا منك كام الشهر ده.. وتنهد إسماعيل قائلا :

– ميتين خمسة وأربعين قرش.. زيادة ضريبة الدفاع، والادخار.

وقال محمد برعى وهو يقهقه :

– يعنى كمان حفلتين لأم كلثوم والماهية ما يفضلش منها حاجة.

وقال اسماعيل :

– والله ما فى حاجة بتخفف المصايب إلا أم كلثوم.. الواحد يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست.

ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبدالعزيز على المحامى، والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقعة القبلات.. ثم وصل السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة حرمه.. والدكتور رفعت عبدالله طبيب مستشفى الرمد والسيدة حرمه.. وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى الركن الآخر حول الراديو.

وعاد محمد برعى يقول :

– اللى عايز أعرفه الخصومات اللى نازلة ترف على الماهيات دى آخرتها إيه.

وقال السيد شكرى :

– أنا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز يدخر حد شريكه.

وقال الاستاذ عبدالعزيز :

– يا جمــاعة، لا تنظروا إلى الموضــوع من وجهــة المصلحة الفردية.. البلد عليها التزامات كتير ولازم كلنا نتحملها.

وقال الدكتور رفعت :

– التزامات إيه بأه يا سى عبـدالعزيز.. آه.. قول لنا إيه هى الالتزامات دى.

وأطلقت دودى ضــحكة مــجلجـلة لوت أعناق الرجــال.. ثم خفضت صوتها وقالت :

– ده الراجل يا حبة عينى مــاخدش منهم يومين.. ويا أختى ماتعرفيش إزاى لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبة.

وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى :

– يعنى بالميت ما يجيش عندها أربعين سنة.

وقالت إنصاف :

– وأكتر.

وقالت خديجة حرم الاستاذ عبدالعزيز :

– إنما صحيح حاتعمل فرح وزفة ؟

وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت :

– دى كانت تبـقى فضيحــة.. دى تبقى فضيــحة. دى تالت جوازة.. فرح إيه وهباب إيه.

وارتفع صوت إسماعيل سكر :

– الساعة كام يا جماعة.. اوعى تكون الست ابتدت.

ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال :

– ياه.. الساعة عشرة ونص.. دى زمانها ابتدت من زمان.

وقام محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلا :

– طيب لو كانت البلد عليها التــزامات، وكلنا لازم نتحملها

يبقى لازمة الأرباح اللى بيوزعوها دى إيه.. طيب ما بلاش أرباح، ويسيبوا ماهيتنا فى حالها.

وقال الأستاذ عبدالعزيز :

– الأرباح دى لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم ملاك.

وقال شكرى ناجى :

– واشمعنى يا أخى العمال وموظفى الشركات يبقوا ملاك.. واحنا يا بتوع الحكومة.. احنا يا للى شايلين الهم على دماغنا، اشمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا نسبة من أرباح الحكومة.

وقال الدكتور رفعت :

– مش مفروض الحكومة تربح.

وقال محمد برعى :

– بلاش نقول ربح.. نسميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومة إيرادها بيزيد كل سنة، ليه ما يوزعوش علينا نسبة من زيادة الإيراد، باعتباره أرباح.

وقال الأستاذ عبدالعزيز :

– يا جماعة ماتنسوش أن الموظفين كانوا دايما متمتعين بضمانات كافية.. عندهم معاشات، وأجازات وحماية من الرفت.. إنما العمال ماكانش عندهم حاجة أبدا.. ومن حقهم أنهم ياخدوا حقهم.

وقال شكرى ناجى :

– طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح الزراعى.. مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح .. طيب

الفلاحـين اللى بيشتغلوا فـيه واللى ما أخدوش خـمس فدادين ما بياخدوش أرباح ليه.

وقال الدكتور رفعت :

– والله الكلام دم لازم يتكتب فى الجرايد.

وقال الأستاذ رفعت :

سيـبك من الجرايـد.. كل اللى بيتكتب فى الجـرايد نوع من اللى نسـميـه مـقالات تبـريرية.. يعنى الحـاجـة تتعـمل الأول وبعـدين الصحـافـة تبررها، تقـول اتعمـلت ليه.. مـا عندناش مقالات توجيهية.. ولا كاتب توجيهى.

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات :

– لا.. مالكش حق يارفـعت.. الجرايد مش ساكـتة.. ده احنا عندنا كل يوم مـيـت شكوى من الجـرايد بيـبـعـتـهـا الوزراء ورؤساء مجالس الإدارات.. هو بس.

وقطعت حديثه دودى وقد قامت تطوف بعلبة الشيكولاتة.

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه :

– مـا تخـرجش من الموضـوع.. تعرفـوا العـامل النهـاردة بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخـمسين جنيه.. وامبارح عبدالله خليل المهندس فى مطـبعـة النهضـة قـاللى إن الأسطى عندهم ماهيته وصلت لماية جنيه.

وقال اسماعيل :

– والله أنا بافكر مـا ادخلش ابنى الجـامـعـة ووديه يتـعلم صنعة.

وقال عبدالعزيز :

– صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.

وقال محمد برعى :

– برضه يا عبدالعزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك ترضى .

وقال عبدالعزيز :

– ما أرضاش ليه.. مادام بيكسب، ويقدر يعيشها كويس.

وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت يده :

– إزاى بأه يا عبدالعزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه عليه عمل.

وقال عبدالعزيز :

– أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان.

وقال محمد رفعت :

– والثقافة .

وقال عبدالعزيز :

– الثقافة فى القراية، مش فى الشهادة.. يعنى أنا كنت اتثقفت فى كلية الحقوق.. أبدا والله، لولا الكام كتاب اللى قريتهم كان زمانى حمار.

وابتعدت دودى بعلبة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن السيدات.. واستقبلتها إنصاف قائلة :

– إلا قوليلى يا دودى.. أنتى لقيتى رز الشهر ده .

وقالت دودى :

– أبدا والله يا أختى.. بعت الواد النهاردة الصبح رجع من غير رز.. إنما أنا دايما عاملة حسابى.. مخزنة شهرين لقدام.

وقالت قدرية :

– أنا مريحة نفسى.. عملت ماهية ثابتة للموظف بتاع الجمعية. جنيه فى الشهر.. ومافيش جنس حاجة أطلبها

مالقيهاش.. وأول الحاجة ما تنزل الجمعية، أبس ألاقيها عندى فى البيت.

وقالت خديجة :

– أنا الشهر اللى فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف :

– أوعى.. ده اللى بيجيب البوليس.. بيفضل بعد كده جعان طول عمره.. الموظفين بتوع الجمعية بيطلعوا دينه.. أوعى تروحى للبوليس.

وقالت سوسن :

– أنا يا أختى عارفة الحاجات دى كلها بتروح فين.. دى الحاجة يدوبك تنزل الجمعية أول الشهر، تبصى ماتلقيهاش بعد ساعتين.

وقالت دودى ضاحكة :

– يمكن بيودوها غزة بدل البرفانات وعلب البلوبيف اللى بتيجى من هناك.

وقالت إنصاف :

– يا أختى الناس هى اللى فجعانة.. والفلوس بقت كتير فى إيدين اللى يسوى واللى ما يسواش.. وكل واحد همه على بطنه.

ومد محمد برعى عنقه من ركن الرجال، صائحا :

– مش نتعشى بأه يا دودى !

وقالت دودى :

– هى الوصلة خلصت.

والتفت محمد برعى إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلا :

– آه.. خلصت من زمان.

وقالت دودى :

– طيب اتفضلوا.

وقام الجميع يـتدافعون إلى حجرة الطعـام.. وقال الدكتور رفعت للأستاذ عبدالعزيز :

– تفتكر الست حاتغنى إيه الوصلة الجاية ؟

وقال عبدالعزيز :

– أمل حياتى طبعا.

وقال شكرى :

– يا سلام.. عظيمة الست دى.

المدرســـة الحديثـــة

أنا رجل حرفتى الكلام .

لست محاميا .

لا .. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق محدود ، ومهما كان عبقريا فإن عبقريته سجينة وراء قضبان من نصوص القوانين .. أما أنا فلسانى مطلق ، وعبقريتى مطلقة .. إنى أضع العالم كله على طرف لسانى ، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود .. وبلا قوانين .. بلا أى شىء .ولست خطيبا .

لا .. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير .. أما أنا فحرفتى مخاطبة عقول الناس .. ليس كل الناس .. إنى أكره مخاطبة كل الناس .. ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين يملكون مصائر الناس .. الأفراد العباقرة الممتازين ، الذين تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة ، عبقرية إنسان موهوب .. ويساوى إقناع الواحد منهم ، إقناع شعب بأكمله . والانتصار على واحد منهم ـ الانتصار بالمنطق ـ يساوى الانتصار على أمة .. يساوى فتح بلد واحتلاله .. أما الخطيب فهو ليس أكثر

من راعى مـاشية .. كـل قدرته ـ مـهما تـفوق ـ هو أن يتـجه بالماشـية إلى حـيث يريد .. ثم إن الخطيب يحـتاج إلى صـوت عـال .. وأنا أكـره الصـوت العـالى .. حـديثى كـله همس .. وصدقـونى أن الكلمة الخـفيضـة الصوت أقـوى ألف مرة من الكلمـة العالية .. أقـوى من كل صراخ العـالم ، لو قالهـا لسان موهوب مثل لسانى.

أنا ـ ببساطة ـ دبلوماسى .

لست وزيرا ولا سـفـيـرا .. لا يمكـن أن أضـحى بمواهبى لأحـمل هذه الأعـباء الإدارية ، وأعـبـاء البـروتوكـول وأعبـاء التحركات والإجراءات الرسمية التى حملها الوزير أو السفير .. وبرغم ذلك فـإن لى مـركـزا فى حكومـتى لا يقل خطورة عن مـركز الوزير أو السـفـير .. مـركـز خاص ممتـاز ، برغم أنى لا أتردد كثيرا على الحفلات الرسـمية .. ولا يشاهدنى أحد فى الاجـتمـاعات العـامة ، ولا تتـحدث عنى الصـحف إلا نادرا .. ولكنى دائما فى مـقابلات .. مقابلات هادئة حـول فنجان شاى أو فنجـان قهوة أو كـأس من النبيـذ .. مقـابلات تنتهى دائـما بحدث كـبيـر .. حدث سـياسى أو اقـتصـادى أو اجتـماعى .. ولا يهم بعـد ذلك أن صورتـى لا تبدو فى هذا الحـدث .. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى .. لا يهم ..

وفى كل حكومات العـالم رجل مثلى .. رجال لهم أهميـتهم القـصوى .. ولكنهم لا يظهـرون على المسرح ، إنهم دائمـا بين الكواليس البعيـدة ، الهادئة .. الخافتـة الضوء .. فى لقاءات مع رجال الدول الأخرى .. ويتكلمون .

والكلام ليس مجرد حرفة .

إنه فن .

فن اختيار الكلمة .

وفن النطق بالكلمة .

إن اختيـار الكلمة ، بمثابة اختيـار اللون عند ما يهم الرسام برسم لوحـة .. الكلمـة هى اللـون الذى يرسم آراءك ، ويرسم أهدافك .. والنطق بـها بمثـابة وضـع اللون على اللوحـة .. هل تضـعـه فى خط عـريض .. أو تضـعـه فى خط رفـيع .. وهل تضعه فـاقعا أو تضعه خـافتا .. وهل تضعه فى جـرة فرشاة واحدة متصلة .. أو تضعه فى نقط مـبعثرة .. و .. وأنت تختار الكلمة بعقلك .. أما لسانك فهو الفرشـاة التى ترسم بها كلامك .

إنه فن .

فن كبير .

وهو فن يتطلب إعدادا خاصا لا يستطيعه أى واحد من هواة الكلام .. إنه يتطلب كنزا من المعلومـات .. ليس فقط مـعلومات عن الموضوع الذى تتكلم فيه .. بل معلومات عن كل موضوع ، حتى نكون دائما على استعداد لنتكلم فى أى موضوع .. وأنا ـ بكل تواضـع ـ أحمل فى رأسى معلومات تكفى لتوزع على ألف رجل كل منهم متـخصص فى موضـوع ، ويحمل فيه شـهادة دكتوراه .. إن رأسى أنسكلوبديا قائمـة بذاتها .. لا تقل اتساعا عن دائرة المعارف البريطانية .

والكلام فن يتطلب أيضا إجادة أكبـر عدد من اللغات ، فإنك عندما تتـحدث بنفس لغة مـحـدثك تستطيع أن تكسبه بسـهولة أكثر .. ثم إن اسـتعانتك بمترجم تفـقدك ثلاثة أرباع تأثيرك .. إن المترجم صديق تشك دائما فى خيانته لك مع زوجتك .. وأنا أكره المترجـمين ، ولا أثق فيهم ولست فى حـاجة إليهم .. إنى أجيد سبع لغات .. أجيدها قراءة وكـتابة وكلاما .. فما حاجتى إلى مترجم .

وفن الكلام يحتـاج أيضا إلى قدرة على التمـثيل .. لا يكفى

أن تتكلم بلسانك .. بل بعينيك .. ويديك .. وأنفك .. وليس معنى هذا أن تقوم بحركـات تمثيلية بحيث تبدو كـممثل .. لا .. ولكن يجب أن يبدو الـصدق فى عينيك عندمـا تريد أن تبدو صـادقا حتى لو كـان كل كلامك كذبا .. ويجب أن يبدو التـساهل على وجهك حتى لو لم تكن متسـاهلا .. و.. و.. لا تنس أبدا أن الذى تتحـدث إليه ينظر إليك بعـينيه ، وأن كـلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك .

وأخيـرا فإن فن الكلام يحتاج إلى مـرونة .. مرونة فى كل شىء حتى فى مبـادئك .. فليس المهم هو المبادئ .. ولكن المهم هو أن تصل إلى مـا تريد .. وبعـد هذا فإن الخطـيئـة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة .. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة.. و.. إن ألعن أنواع المتـحدثين هم هـؤلاء الذين يتحـدثون باسم المبادئ ، إنهم غالبا لا يصلون إلى شىء .

إنه فن شاق .

وثقـوا أنى ألهث عقب كـل لقاء أتكلم فـيـه .. إن ما يتطلبـه الكلام من القـدرة على تركيز الـذهن .. والسيطرة التـامة على خلية من خلايا عقلك وعضـلاتك ، عملية منهكة .. عنيفة .. إنى أحتاج إلى راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام .. وبرغم ذلك فإن تعبى لا يهم مادمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات الرائـعة .. اللوحات التى أقنعت وآمـن بها كل من تحدثت إليهم ، وانتـهت بعقد كثيـر من المعاهدات بين حكومتى والحكومات الأجنبيـة ، وكثير من الاتفاقات التـجارية والمالية ، بل حلت كثيرا من الأزمات السياسية .

ولا تعـتقدوا أنى كـبيـر فى السن .. لا .. فبـرغم موهبـتى ونـجاحى ، فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمرى ، وكنت فى الثامنة والثلاثين من عمرى عندما التقيت بكوثر لأول مرة .

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين - أمثالى - وزوجاتهم .. ووقعت عليها عيناى وهى ترقص « التويست » .. آسف لعلها كانت ترقص « الباسانوفا » .. ووجدت نفسى أتتبعها باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة من لوحاتى .

إن كوثر رائعة .. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة موسيقية قائمة بذاتها .. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص .. ليس فيها قطعة واحدة ليست متأثرة باللحن ومنساقة إليه .. واستنتجت أن كوثر لا بد أن تكون كريمة أحد الزملاء المدعوين.. فعمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشرين .. والأسلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أسلوب سيدة متزوجة .. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشاط الذى لا تجده فى الزوجات ، وشعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شعر زوجة .. إنى خبير ، وأستطيع أن أفرق بين « الزوجة » و « الكريمة » فى لمحة واحدة .

وأخذت أسائل نفسى : ترى كريمة مَنْ منْ الزملاء ؟

وقبل أن تدلنى فراستى على أبيها انتهتَ الرقصة .. وجاءت كوثر وجلست بجانبى ولا أدرى هل جاءت بجانبى بمجرد الصدفة ، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها ، أو أنها تعمدت أن تختارنى لتجلس بجانبى .. لا يهم .. لقد التفت إليها وعلى فمى هذه الابتسامة التى تعودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه .. إنى أثق كثيرا فى هذه الابتسامة.. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا .. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشغولة

عن ابتسامتي .. فقد جلست بجانبي وهي تدق على الأرض بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموسيقى الراقصة .. وجسدها يتمايل في هزات رشيقة .. وتطرقع بأصابعها بين الحين والحين .. وهي تغني في صوت خفيض هامس :

– تويست .. تويست .

لا يهم .. إني واثق أني أستطيع أن أرسم لها بلساني لوحة شائقة تبهرها وتجذب انتباهها .. وقد كنت دائما قادرا على أن أبهر النساء .. بل إني كنت أتعمد أن اجتذب اهتمام السيدات كوسيلة من وسائل إقناع أزواجهن ، وكان مبدئي : « إذا كسبت الزوجة فقد كسبت الزوج » ، وقد كسبت جميع زوجات الرجال الكبار الذين كلفتني حكومتي بالتحدث إليهم ..

وقلت لكوثر بادئا الحديث معها ، وقد وضعت في عيني نظرة فيها بعض البريق ، وبعض الحنان ، وبعض الجدية ، وجعلت صوتي مليئا ولكن لا يخلو من المرح :

– إنتي بترقصي مدهش يا آنسة .. تعرفي أن الرقصات الحديثة دي زي التويست والباسانوفا ، دي في الواقع مش حديثة .. دي مأخوذة من الفولكلور الإنساني ..أقدم فولكلور في العالم .. يعني أيام ما كان الإنسان لسه عايش في الغابة .. كان يرقص كده . وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دي كانت قريبة من قلب الإنسان و ..

وقاطعتني كوثر قائلة بسرعة :

– واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها ..

وانطلقت تضحك ، ضحكات رقيقة ناعمة لها صوت كصوت الأجراس المعلقة في رقاب البقر وهي ترعى في جبال سويسرا.

وارتبكت أنا ..

الواقع كانت مفاجأة لي . . ولكني تمالكت نفسي بسرعة ، وضحكت معها .

ثم كفت كوثر عن الضحك ، وعادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة .. وعدت أنا إلى رسم لوحتى بلسانى ، وقلت :

الواقع مش بس الرقص هو اللى أصبح يستمد خطواته من الفولكلور القديم .. الحلى مثلا .. يعنى الأساور اللى بنشوفها النهارده فى إيدين الستات و ..

وعادت كوثر تقاطعنى قائلة :

– مرة واحدة حلق والثانى غويشة .. ها .. ها..

وسخسخت على نفسها من الضحك ..

وارتبكت مرة ثانية ، ولكنى بسرعة ضحكت معها .. سخسخت أنا الآخر .. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

– أنا مرة كنت فى إنجلترا وزرت قصر اللورد .

وقاطعتنى كوثر

– واحد نوبة راح قصر الدوبارة اتكعبل .. ها .. ها ..

واستطردت بسرعة :

– واحد نوبة ربى فراخ فى قفص صدره ، ها.. ها.. ها..

و ..

– واحد راح سينما ريالتو نزلت .. ها.. ها..

و ..

– واحد قالوا له الصالون الأخضر فاتح ، راح لقاه غامق.. ها.. ها.. ها..

ولم تسكت إلا عند ما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص .

وتركتنى مذهولا ..

لا يمكن أن تكون كوثر سخيفة وتافهة إلى هذا الحد .

لا .. ليست سخيفة ولا تافهة .. افهمونى ، كل ما هنالك أن كوثر تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التى أؤمن بها .. إنها من أنصار المدرسة التجريدية .. والتجريد فى الرسم معناه أن تجرد اللوحة من الموضوع ، وتقتصر فيها على الألوان والخطوط . وتأثير الألوان والخطوط يغنى عن الموضوع .. أى أن تضع اللون الأسود ، بجانب الأبيض ، بجانب الأخضر ، بجانب الأسود .. وهذا يكفى .. يكفى لتكوين لوحة رائعة .. لوحة تجريدية .. وكذلك فى فن الكلام ، إنك تستطيع أن تجرد كلامك من الموضوع ، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ تضعها بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيرا على السامع .. أى تأثير .. تأثير بلا موضوع .. وهذه هى المدرسة الحديثة .. والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون ، وبعض اللوحات التجريدية تباع بآلاف الجنيهات ، وكذلك المدرسة الحديثة فى الكلام ، لها أنصار كثيرون ، ولها تأثير كبير .

وبدأت أراجع كلام كوثر :

– واحد حلق والثانى غويشة .. ها .. ها .. ها ..

ضحكت فعلا .. ضحكات من كل قلبى .

– واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها .. ها ..

إنى أضحك .. أضحك كما لم أضحك قط فى عمرى .. إن المدرسة التجريدية لها تأثير كبير .. تأثير مباشر .

وكوثر ليست تافهة ولا سخيفة ، إنها من أكبر أنصار المدرسة التجريدية .

ولا أطيل عليكم .

لقد تزوجت كوثر .

ومضى عام ونحن نكاد نطير من السعادة .. إننا فى جنة صنعناها من حبنا ومن توافق أمزجتنا وشخصياتنا . وإيمانى

بالمدرسة التجريدية يشتد ، وقد جمعت خلال هذا العام من لوحات الكلام التجريدى ، عشرات .. مئات .. ربما أكثر مما جمعت كوثر طول حياتها .

ثم لا أدرى ماذا حدث .

ماذا حدث حتى تطردنى حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة ، دون ذنب جنيته ، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات .

كل ما أذكره أن الوزير استدعانى مرة إلى مكتبه ، وبدأ يحدثنى عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه:

– إن مبادىء المرحوم لومومبا لا تزال ..

وقاطعته قائلا :

– واحد لومومبا والثانى مالوش .. ها .. ها .. ها .

إنها لوحة تجريدية رائعة ..

ولكن الوزير لم يضحك .. لقد نظر إلىّ نظرة هائلة ، وزم شفتيه فى قرف .. لا يهم .. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية فى الكلام .. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية ، لست متعصبا لها ، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى واحترمها .

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلىّ هذه النظرة الهائلة ، وشفتاه مزمومتان فى قرف .. ثم أنهى المقابلة فجأة ، وصرفنى من مكتبه .

وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى .

لماذا ؟

لست أدرى .

غابة من السيقان ..

لم أكن أبدا هذا الإنسان.

كنت دائما إنسانا مثاليا.. ربما منذ ولدت وأنا مثالى.. ولم أكن أدرى أننى مثالى.. لم أر صورة أخرى من صور الحياة حتى أقارن بينها وبين صورة حياتى، ثم اكتشفت من المقارنة أننى مثالى.. أبدا.. كنت أعتقد أن الحياة كلها هى هذه الحياة التى أعيشها، الحياة الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم وثقافة وعمل.

وبيتنا الكبير هادىء دائما، نظيف دائما، لم ترتفع فيه يوما كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانه حادث يمكن أن يضع معانى الفضيلة والعفة موضع مناقشة.. وأبى يملأ البيت بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسه الكبير بالمسئولية.. وأمى تملؤه بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور الأمومة الطاهرة.. وأنا أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى للرسم، أو أذهب إلى النادى

القريب لألعب التنس.. وهى هواية ثانية من هواياتى.. أو أنزل إلى ورشة النجارة الصغيرة التى أقامها لى أبى فى البدروم، لأصنع أشياء من الخشب.. فقد كانت النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضا إحدى هواياتى.. وإخوتى لكل منهم هوايته التى يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية عميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية.

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق.

وعملت محاميا فى مكتب أبى.

ومكتبنا - أقصد مكتب أبى - كبيتنا.. مكتب نظيف، عف، مثالى.. لم يدخله أبدا مجرم، ولا تولى الدفاع أبدا عن جان.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى - رحمه الله - يقول لى دائما إن المحامى يجب أن يكون أولا قاضيا، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبدا أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبرئ مجرما.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى.. وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه.. ولذلك سميت المحاماة : « القضاء الواقف » ، لأن القضاء الآخر « قضاء جالس » ..

وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيرا من القضايا التى يأتى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التى تعرض عليه.

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلا واحدا من موكليه.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى.

وفى نفس العام الذى تخرجت فيه فى كلية الحقوق، تزوجت نيفين.

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى.

وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناى فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شىء.. كان فيها هذا العبير الهادىء العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم نكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر بارتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى.

وأصبحت زوجا مثاليا.

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا ثم أذهب إلى النادى لألعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن ـ نيفين وأنا ـ مدعوين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين.

خمسة عشر عاما مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشتها بين عينى نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض، وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، أى والله.. ملائكة.

إلى أن دخلت حياتى سميحة.

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف.

جاءت إلى مكتبى تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها.. ولكنى كنت أسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه المعمارى الرائع.. ومن أجل زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولا أدرى كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى مكتبى، أستمع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها من هذا النوع الذكى الذى يشدك إليه.. ولا تمله.. الحديث الذى يوقظ انتباهك كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف.. إثارة عابرة.. لقد جعلتنى أضحك.. وجعلتنى أحزن.. وارتفعت بى وانخفضت بى.. إنى لم أقابل أبدا مثل هذه السيدة.. واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة.. ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد من بحث موضوع ضريبة التركات.

وانصرفت على أن تعود.

وليلتها قلت لزوجتى نيفين :

– جاءت إلى المكتب الليلة سميحة هانم حرم المهندس مصطفى الشريف.. أتعرفينها ؟

قالت فى صوتها الهادىء ولسانها العف :

– سمعت عنها .

قلت :

– إنها سيدة مليئة بالحيوية.

وقالت نيفين :

– كلها نشاط.. إنها فى كل مكان.

والواقع أن سـميـحة لم تتـرك فى أثرا بعد لقـائنا الأول إلا انبهارى بشـخصيتها النشـيطة المتدفقة.. انبهار كاد يتلاشى مع الصباح.

ثم عادت سميحة.

وعادت مرة أخرى.

إنها قطعا ليـست أجمل من نيفين.. ولكن فيهـا شيئا.. ليس فى نيـفـين هذا التـدفق.. هذه القدرة الـطاغيـة على جـذب كل خيوط انتباهك.. وتحريك مشاعرك.. إنه شىء ليس فى نيفين.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقارن فيها بين نيفين وأى امرأة أخرى.. بل كانت المرة الأولى التى أعتقد فيها أن هناك أى امرأة يمكن أن تـقارن بنيفـين.. أكثر.. كـانت المرة الأولى التى أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امرأة أخرى غير نيفين.

وجاءت سميحة ذات مساء.

وجلسـت تستولـى على كل اهتمامى.. كأنها تنيـمنى تنويما مغناطيسيا.. ثم قالت :

– ليس معى سيارتى.. هل توصلنى بسيارتك.

ونظرت فى سـاعتى.. التاسعة، موعد انتهاء العمل.

– لا مانع.

وركبت بجـانبى، وحديثـها لا يكف عنى.. تجعـلنى أضحك وتجعلنى أفكر معها.. أفكر فى أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالى

أنى ســأفكر فيـها يومـا.. الأزياء، نجـوم السينمـا، أى شـىء..
ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت فى بساطة :

– هل لك فى كأس ؟

وترددت.. فعادت تقول :

– قـد نستطيع فى جلســة عائـلية أن نحـصر تفكيـرنا فى موضوعنا.. أقصد قضية الضرائب.

وعدت أنظر فى ساعتى.

التاسعة والنصف.

أستطيع أن أتأخر قليلا عن البيت.

ودخلت معـها.. وكنت أعتقـد أنى سأقابل زوجـها المهندس مـصطـفى الشــريف.. ولـكنه لم يـكن فى البــيـت.. إنه فى الاسكندرية.

وعدنا إلى حديثنا.

وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها.. ولم أكن ساذجا إلى هذا الحد.. إنى أعـرف بالضبط ماذا تريد.. ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحـترم زوجها.. ولكنى كنت قد نسيت الزوج.. نسيته ربما من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية لا تترك مجـالا لذكر زوجها.. ومقاومـتى تضعف.. وتضعف.. إلى أن وجـدت عمـرى كله ينهار.. ثـمانيـة وثلاثون عامـا من المثالية تتساقط هشة كالأوراق المحترقة.

وعدت إلى بيتى.

ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى.. عـيناى منكســتـان.. رأسى منكس.. قلبى منـكس.. ضمـيـرى منكس.. فى ضميـرى حسرة صارخة كـأنى خسـرت كل رأس

مالـى على مائدة القـمار فى لحظة واحـدة.. ولم يكن لى رأس مال أعز على من مثاليتى.

ولم أنم..

ونسيت فى الصباح أن أقبل أولادى.. وأقبل نيفين.. وجرت نيفين ورائى، ولحـقت بى عند الباب وهى تنظر إلى فى دهشة بريئة.. ومدت إلىّ خدها، فقبلتها قبلة سريعة كأنى كنت أخشى على خدها الطاهر أن تلوثه شفتاى.

وكان يجب أن أقاوم.

أقاوم سميحة.

وقد استطعت أن أقاومها فى التليفون، ولكنى لم أستطع أن أستمر فى مقاومتها عندمـا جاءت إلى مكتبى بنفسها لتأخذنى إليها.. إن سحرا طاغيا يرقـد فى عينيها السوداوين الكبيرتين.. سـحر الخطيـئـة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفـخـر دائما بقـوة إرادتى.. انهـرت.. ربما لأن كل قوىّ فـوقه من هو أقـوى منه.. وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان أقوى منى.

والانهيار يأكل أعصابى.

إنى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسان الهادئ الطاهر المثالى.. إنى إنسان عـصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جـميع هواياتى بما فيـها هواية المحاماة.. أسـرح كثيـرا.. وكلما وخزنى ضمـيرى صـرخت فى وجـه نيـفـين.. كـأنى أحـاول أن أسكت صـوت الضمير تحت صوت الصراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى أحاول أن أسكـته. وهى تنظر إلى فى رهبـة تشوبهـا الشفـقة، وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا بى.. لعلى مريض.

وسميحة تتحدث كثيرا عن نيفين.

إنها تريد أن تتعرف إليها.

- لماذا ؟

- لأزداد قربا منك.. يا حبيبي.

ولم أرد.

إني لا أريد أن أجر خطيئتي إلى بيتي.

ثم فوجئت يوما بنيفين تقول لي في صوتها الهادئ، ولسانها العف :

- أتدري.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غدا إلى الشاي مع بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.

وذعرت.

لقد وصلت الخطيئة إلى بيتي.

ولكن.

هل الخطيئة هي سميحة ؟

وأنا.. ألست النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم في هذا البيت.. فلماذا لا تأتي إليه سميحة أيضا.

وسكت.

وجاءت سميحة.

وزوجتي مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير في مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى الأمام يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المريض، وزوجتي تتحدث عن إعجابها بسميحة.. شعرت كأن زوجتي تهنئني على ذوقي في اختيار النساء.. كأنها تهنئني على هذا الانتصار يوم نلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل يوم في التليفون مع زوجتي.. في البيت.

وتتحدث معى كل يوم فى التليفون.. فى المكتب.

ثم مفاجأة أخرى.

إن سميحة تدعونا - زوجتى وأنا - إلى العشاء عندها.

وقد وجهت سميحة الدعوة عن طريق زوجتى دون أن تخبرنى بها.. كأنها بذكائها النسائى كانت تعلم أن زوجتى أقدر على إقناعى بقبول الدعوة.

لا.. لن أقبلها.. إنى مشغول.. مشغول.

وزوجتى تلح.

ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشريف يتحدث إلىّ فى التليفون.. وارتعشت يدى التى تحمل السماعة عندما نطق اسمه.. وسقط قلبى.. ولكنه يشكرنى.. يشكرنى على اهتمامى بقضية زوجته ويكرر دعوة سميحة التى وجهتها إلى زوجتى..

كل الأصول روعيت.

هى دعت زوجتى.

وزوجها دعانى.

فلا أستطيع الرفض.

وذهبنا.. وكل شىء منى ليس فى مكانه.. ابتسامتى ليست فى مكانها المعتاد فوق شفتى.. ونظرتى ليست فى مكانها المعتاد من عينى، وقلبى ليس فى مكانه المعتاد بين ضلوعى.. وأشياء فى داخلى ترتعش.. كأنى آلة انفكت صواميلها.. وخفت.. خفت أن يلمح الناس عى وجهى بصمات خطيئتى.. خفت أن يكون فى صدرى ميكروفون يذيع على الناس كل ما فيه من أسرار.

ولكن لا شىء حدث.

سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة.

ولابد أنى أنا الآخر أبدو طبيعيا.

إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلمحها أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها صوت.

وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعشش بها الخطيئة فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال الخطيئة فى المجتمع.. لماذا لا يكون فى هذا الحفل خطايا أخرى غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء المدعوين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلانا ينظر إلى فلانة طويلا.. وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد فى يد فلان وهى تصافحه.. و..

وأصبحت هذه هى هوايتى الجديدة.

هوايتى الوحيدة.

وقد أصبحنا ـ نيفين وأنا ـ نخرج كل مساء مع سميحة وزوجها.. وكنت أضحك فى صدرى ونحن نتحرك معا.. إن عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر وزوجته، ثم عشيق وعشيقته.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها.. ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفى كل مكان كنا نذهب إليه، سواء ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدأ فى ممارسة هوايتى.. اكتشاف خطايا الناس، واستنتاجها من تصرفاتهم وهمساتهم.. وكنت أجد لذة فى ممارسة هذه الهواية.. لذة فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتى بها تكبر.

ثم..

وكنا مدعـوين نحن الأربعة.. آسـف نحن الستة.. إلـى حفل ساهر.. وسقطت عيناى على وجه نيـفين.. زوجتى نيفين.. وإذا بى أتساءل : لما أعفـيت نيفين من هوايتى.. لماذا لم أبحث فـيها هى الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنهـا مثالية ؟ ولكنى كنت أنا الآخر مثـاليا، ولم أعف عن الخطيئة.. ربمـا هى الأخرى وقعت كما وقعت ؟

وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين.

وخيل إلى أنـى أرى فى عينيهـا نفس اللمعـة التى أراها فى عينى سـميحـة.. وأرى على شفتـيها نـفس الابتسامـة الواثقة المتحـدية.. وألمح فى حـديثها نـفس الذكاء ونفس الشـخصـية الجذابة.. و.. و..

وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عينى عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على الناس فى الحـفلات والمجـتـمعـات فقـط.. فأصـبحت أمـارس هوايتى على نـيفـين طـول النهـار والليل.. فى البـيت وخـارج البيت.. إنى أتصنـت عليها وهى تتـحدث فى التليفـون.. وأفتح دواليبها فى غيبتـها.. وأتظاهر بالنوم حتى تنام، ثم افتح عينى وأبقى يقظا طول الليل لعلها تقول شيئا فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها.

ونيفين صـابرة.

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر.

إلى أن كان هذا اليوم.

وكنا مدعوين نحن الأربعة.. آسـف.. نحن الستة.. إلى حفل عشاء يـضـم أكثر من عشـرين مدعوا ومدعـوة، التقوا جمـيعا

حـول مائدة واحـدة كـبيـرة.. كل زوجـة بجانبـهـا رجل ليس زوجـها.. وكل رجل بجـانبه سـيدة ليـست زوجتـه.. هذه هى التقاليـد.. التقاليد الاجتـماعية المعتـرف بها.. ليس من حقك أن تطالب بأن تجلس زوجـتك بجـانبك.. عـيب أن تجلس الزوجـة بجانب زوجها.. فضيحة كبرى.. إن زوجتك بجانب رجل آخر.. وكأن زوجـاتنا كلهن من بنات الجيـشا، مفـروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذى يوضـع بـجانبـها تقـول له كلامـا حلوا.. وتبتـسم له ابتسامـة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقـاليد.. تقاليد الجيشا.

ووضعونى بجانب سـميحة.. أو وضعوا سمـيحة بجانبى.. إنهم دائما يـضعون أحـدنا بجانب الآخر وكـأن هناك اعتـرافا ضمنيا من المجتمع بخطيئتنا.

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى.

إنها دائمـا تلف ساقها على سـاقى من تحت المائدة، وتخبط ركبتها بركبتى، كلما جلست بجانبى.

واستسلمت ساقى لساقها.

نامت عليها.

ثم فجأة تذكرت نيفين.

من أدرانى ؟!

واعتدلت فى جلستى.

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة.

ولا يبدو على وجهها شىء.

ولكن سمـيحة أيضـا لا يبدو على وجهـها شىء.. ولو نظر

المهندس مصطفـى الشريف فى وجه زوجـته فلن يرى ساقـها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة.

وتعـمـدت أن أسـقط السكين الذى آكـل به على الأرض، وانحنيت لألتـقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سـريعة غير مركزة لم ألمح من خلالها شيئًا.

وبعد فترة عدت وأسـقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت المائدة.. كـانت نظرة أطول وأكـثـر جـرأة من النظرة الأولى .. ولكنى لم أتمكن أيضـا من التـأكد من حـقيـقة مـا يدور تحت المائدة.

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبـة جامحة عنيـفة تتـملكنى لأرى مـا يدور تحت المائدة.. ولعل سمـيحـة لحظت اضطرابى فبدأت تتحدث إلى وتحاول أن تثير اهتمامى، وحـاولت أنا الآخـر أن أستـمع إلى حـديثـهـا وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة تلح علـى.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن بى رغبـة جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة.

ولم أعد أستطيع أن أقاوم.

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدى وركبتى ودخلت تحت المائدة.. ووجـدت نفسى فى عـالم غريب.. عـالم خافت الضوء.. مثـير.. ومن حولى سيقان كثيـرة.. سيقان فى بنطلونات.. وسيقان حـريمى.. سيقان رفيعة، وسيـقان مليئة.. إنهـا غـابة.. غـابة من السـيـقان، ولو هـبت الريح لاصطدمت السيـقان بعضـها ببعض كـما تتصـادم أفرع أشجـار الغابة.. تتـصـادم هكذا.. هكذا.. وبدأت أمـسك بالسـيقـان من حـولى

والصقها بعضها ببعض.. وأنا أصرخ : الريح هبت.. الغابة.. الغابة.. الغابة.

●●●

لقد كنت يومها أدرى تماما ما أفعله.. كنت فى وعيى.. كنت أعى أنى اسقطت نفسى من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت المائدة، وأمسكت بالسيقان أصدم كل ساق رجل بساق امرأة.. وكنت أسمع صوتى وأنا أصرخ : الغابة.. الغابة.. لم أكن مجنونا . كل ما هنالك أنى لم أستطع أن أقاوم هذه الرغبة الجامحة العنيفة التى استبدت بى.

ولكنهم اعتبرونى مجنونا.

وجذبونى من تحت المائدة.

ونقلونى إلى مستشفى بهمان.

وكان آخر ما رأيته هو دموع زوجتى نيفين، قبل أن يسرى المخدر الذى حقنونى به فى عروقى وأنام.

وقد قضيت فى مستشفى بهمان ستة شهور.

وبرغم ذلك.

صدقونى.

أنا لست مجنونا.

وأنا أبحث عن عمل.

عبد الله .. وفاطمة

يا حضرات القضاة.

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإنى أقول «العدل فوق الرحمة».. إنى أتمسك بالعدل، وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفى بمخاطبة عقولكم باحثا فيها عن العدل.. ومهما بدا فى حالتى التى أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإنى واثق من أن عقولكم التى تمرست طويلا على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصفنى.. قادرة على أن تعطينى حقى، وتأخذ للمجتمع حقه على.

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أنىّ لا أريدكم أن تحكموا على بالظروف التى أحاطت بى عند ما ارتكبت جريمتى.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف فى نفسى.. فى داخلى.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. فى داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع

وحواري وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترموايات وسيارات تاكسي.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبنى.. وفيها زحام من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبكون، ويتناقشون، ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أخيار.. ناس ضعفاء وناس أقوياء.. والجريمة التى ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة.. جريمتى لم تقع فى شارع «السد» بحى السيدة زينب، كما تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت فى شارع آخر له اسم آخر، وفى حى آخر، وفى مدينة أخرى.. إنها وقعت فى هذه المدينة التى تسمى مدينة النفس الإنسانية.. المدينة التى تعيش داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة التى ستهديكم إلى العدالة.

يا حضرات القضاة.

إنى أرفض فى إصرار هذا التحليل الذى تقدم به الأستاذ المحامى الذى انتدب للدفاع عنى.. إنه يحاول أن يبرر جريمتى بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسن نواياه، وأقدر أن محاولة إثبات جنون المتهم هى أسهل الطرق للدفاع عنه.. إلا أنى أرفض هذه المحاولة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لست مجنونا يا حضرات القضاة.. أنا فى كامل قواى العقلية.. ولو أحلتمونى على الطبيب الشرعى، فيسكتشف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقل جدا.. ولكن الأجدى لعدالتكم أن تنتدبوا خبيرا من خبراء علم النفس لينير أمامكم هذه الشوارع والحوارى والأزقة التى تتكون منها هذه المدينة الواسعة التى ترقد بكل ضجيجها داخل صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشفون أنى عندما ارتكبت جريمتى كنت فى حالة يسمونها فى علم النفس، حالة ازدواج الشخصية.. لم أكن ساعتها شخصا واحدا.. بل كنت

شخصين.. كنت عبدالله محمد على جابر وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق.

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة كما ثبت فى التحقيق ارتكبها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبها؟

هل ارتكبتها أنا عبدالله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولا أن تحددوا الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة.

يا حضرات القضاة.

أرجوكم.. طولوا بالكم على.. ولا تنظروا إلى هكذا كأنى مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ الدكاترة المتخصصون.. وقد دفعنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمور، لم تنشر لى الصحف شيئا، ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى انتاجى الأدبى، وأعمق، وأكثر تمكنا، من كثير من الأدباء والقصاصين المعروفين الذين تنتشر أسماؤهم فوق بقع سوداء كالبراطيش .. متى بدأت

هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفسى إلا وفى يدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضرات القضاة.. وقد كان جدى الشيخ على جابر أديبا موهوبا، وربما ورثت عنه الأدب، كما ورث اسكندر ديماس الابن موهبته عن اسكندر ديماس الأب.. وكنت أطمع دائما أن يكون عندنا بين الأدباء العرب «جابر الجد» و «جابر الحفيد» أى أنا.. و..

حاضر يا سيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن أحدثكم عن هوايتى للأدب ولكتابة القصة حتى تصلوا إلى الحقيقة.. الحقيقة التى دفعتنى إلى الوقوف أمامكم فى قفص الإتهام.. إن هوايتى هى التى تحدد شخصيتى.. أو هى ـ كما يقول الأستاذ العقاد فى كتب العبقريات ـ مفتاح شخصيتى .. وقد حالت ظروفى دون أن أتم تعليمى.. انقطعت عن المدرسة قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لى انقطاعى عن المدرسة فرصة أكبر للتفرغ لهوايتى.. قرأت.. قرأت كثيرا.. عشرات الكتب فى الأدب، فى علم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم، وكتبت.. كتبت كثيرا.. عشرات القصص.. وعشرات البحوث الأدبية القيمة.. إن ما كتبته يكفى لإنشاء مكتبة قائمة بذاتها.. مكتبة جابر.

وكانت لى دائما قارئة وحيدة..

فاطمة.

جارتى فاطمة.

وكنت أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من قصة حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس بجوار أمى واقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان

وراء أبطالى وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها مشهد غرام، وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب، والضحكة تكاد تنطلق من شفتيها فى مواقف المرح.. لقد كانت فاطمة معجبة بكل ما أكتبه، متأثرة به.. كانت مؤمنة بى، وبأدبى.. بعبقريتى.

إلى أن أحبت فاطمة.

لم تحبنى أنا.

ولكنها أحبت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقى مرعى.

كان إبراهيم موظفا فى مصنع النسيج الذى تعمل به فاطمة.. وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلىّ وصارحتنى بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن أكتب لها خطابا ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها الخطاب ووقعته باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات القضاة قطعة أدبية رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضا صاحب أسلوب.. إنه يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعا لا يستطيع أن يرتقى إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمه بخطاب إبراهيم، وطلبت منى أن أكتب له خطابا ثانيا.. وثالثا.. ورابعا.. خطابات أكتبها بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينيها، وأوقعها باسمها.

- يا حضرات القضاة.

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسان فتاة، أو يعبر عن شخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما

تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شخصية فاطمة.. أكتب كل يومين أو ثلاثة خطابا لإبراهيم.. أبثه عواطفى، وآلامى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العامين قد بدأت تلقى إبراهيم، وكانت تعود لتروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادىء الأمر تتردد فى أن تروى لى كل شىء.. ولكنى أقنعتها بأنى لكى أكتب لها خطابات صادقة يجب أن أكون فى نفس حالتها.. فلم تعد تتحرج.. كل شىء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمسات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاته.. وأسمع كلماته.. أحس بكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شخصية فاطمة إلا عندما أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبى لإبراهيم.. اقرأ خطاباته.. وأكتب له خطابات.. وقد أصبحت أكتب لإبراهيم دون أن تطلب منى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرسل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة.

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم.

أصبحت امرأة.

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

وأحسست بكل ضعف فاطمة، وكل خلجات عواطفها التى دفعتها إلى الاستسلام.. وعشت كما تعيش فى الأمل الكبير.. الأمل فى أن يتزوجنى إبراهيم.. أقصد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتى له تنبض بهذا الأمل.. خطابات فيها ضعف.. ضعف لحظة الاستسلام.. وفيها رجاء.. وفيها توسل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد.

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.

وتزداد برودا وتباعدا.

إلى أن تحرك الجنين فى أحشاء فاطمة.. وفى أحشائى أنا أيضا.. وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريعة.. وكل ضياعها.. ضياع فى دوامة هائلة مخيفة.

ولم يعد إبراهيم يكتب إلىّ.

عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد علىّ.. خطابات فيها توسل استغاثة.. وفيها تهديد.. توعد.

ولكن التوسل لم يحن قلبه.

والتهديد لم يخفه.

وبدأ يهرب من لقائى.. أقصد لقاء فاطمة.

إلى أن جاءت إلىّ فاطمة يوما وهى كالمجنونة.. لقد خطب إبراهيم فتاة أخرى.

وإنهارت فاطمة.

وانهرت معها.

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مشكلة شخص آخر.

لم تعد فاطمة فى هذه اللحظة شخصية أخرى.

أنا فاطمة.

وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائى.. وأنا الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد.. وجلست أكتب له خطابى الأخير.. لم يكن عبدالله هو الذى يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها النفسى.. وكان خطابا رائعا.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها جائزة الدولة.

ولم يرد إبراهيم.

والغيظ يفرينى.. والحقد يمزقنى.. والرغبة فى الثأر تستبد.. و.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن أحاسيسها حتى أحس بما تحس، لقد أصبحت أنا فاطمة.. ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعد للجريمة.. إن فاطمة الحقيقية يا حضرات القضاة لا تعلم شيئا عن هذه الجريمة، ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى.

وقد اشتريت زجاجة ماء النار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى عليه لا يمكن أن يكون تفكير رجل.. ليس من طبيعة الرجل عندما يفكر فى الانتقام أن يقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم يكن عبدالله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة.

وحملت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلى إبراهيم فى بيته.. وحادثته فى موضوع فاطمة، وحاول أولا أن ينكر علاقته بها.. ولكنه فوجىء بالتفاصيل الكثيرة التى ذكرتها له.. كأنى كنت معهما فى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفى كل خطاب.. لقد كنت معهما فعلا.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيرا أن أقنع إبراهيم بأن يصون وعده لى .. أن يتزوجنى .. حرام عليك

يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا يا إبراهيم.. ارحم ابنك اللى فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه أحيانا بأنى أحدث إبراهيم بلسان فاطمة .. كأنى امرأة .. فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة ، وأحدثه كعبد الله.. رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأتحدث كفاطمة.. حرام عليك يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا يا إبراهيم.

وربما ظننى إبراهيم مجنونا، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة.. بدأ يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنفه.. فرفعت الشمعدان النحاسى، الذى كان قريبا من يدى وضربته به على رأسه.. وسقط تحت قدمى.. فأنهلت عليه ضربا، إلى أن سكت عن الحركة.. ثم أخرجت ماء النار وسكبته على وجهه، ووقفت أرقبه.

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات القضاة.

أحسست بالدهشة.

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية الأخرى، وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبدالله.. وعبدالله لا يريد أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة.. ولكنها فاطمة.. فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت.

يا حضرات القضاة.

إن وكيل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيم بدافع الغيرة، لأنى كنت أحب فاطمة.

لا.. لم أكن أحب فاطمة.. كيف أحبها وأنا الذى كنت أكتب خطاباتها لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة.

كنت أنا فاطمة.

فاطمة التى تعيش فى داخلى هى التى قتلت إبراهيم.. وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام فاطمة، ولا العدالة.

وعدالتكم تأبى أيضا أن تحكموا بإعدام عبدالله، لأن عبدالله لم يرتكب الجريمة.. عبدالله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل إبراهيم مرعى الدسوقى.. والدافع شرط أساسى لتوفر أركان الجريمة.

وأنا واثق من عدالتكم.

وعذرا إن كنت قد أطلت عليكم.

كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التى يعرف كل الناس أنها ليست جميلة.

وأقول : «ليست جميلة» لأنى لا أستطيع أن أقول «قبيحة» أو «دميمة» أو أى وصف آخر من هذه الأوصاف المباشرة القاسية التى يمكن أن يصفنى بها الناس.

والناس تتساءل دائما : كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى كل هذه السنين برغم أنى لست جميلة ؟

وزوجى رجل وسيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به أجمل الجميلات.. فكيف استطعت أن أحتفظ به.. أنا.. أنا التى ليست جميلة.

بعض الناس يعتقد أنى احتفظت به بذكائى.. وعندما يصفوننى بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيِّب الحلو، بل يقصدون الذكاء الشرير الخبيث.. الذكاء الذى استطاع أن يسجن هذا الرجل الرائع داخل سجن له عظام بارزة مدببة

كالشوك وله جلد أزرق مكرمش، وله وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال.

وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه بالمسئولية نحو أولادنا الخمسة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن ألد لا لشيء إلا لأزيد عدد الحبال التى تربطه بى، وتقيده إلىّ.

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه احتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلبانة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقيها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فاحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقربا لله.

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتملته حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فأنا أعلم ـ قبل أن يعلم الناس ـ أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لونى الغامق الذى يميل أحيانا إلى اللون الأزرق وأحيانا إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عينى أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئا جميلا فى حياة الرجل.. يتزين بها.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيرا.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة العائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا..

وربما ولدت وأنا أعد نفسي له.. ومنذ بدأت أرى نفسي في المرآة وأنا أعرف أني لست جميلة.. ولكن كنت دائما أتعلق بأمل كبيرة أن شيئا ما سيحدث لي أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل في المرآة لعل هذا الشيء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبدا.

وأطل في عيني حسن فأحتار فيهما.. هل يراني كابنة خالته، أو يراني كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبله.. إنه مرح دائما.. رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التي يلقيها على بين الحين والحين.. ما تخرجيش.. ماتلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضا أوامر أخ، أو ابن خالة.

وحيرتي تكبر مع عمري.. إني لا أستطيع أبدا أن أعرف إذا كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية التي قد تساعدني على الخروج من حيرتي.. لا كلمات حب.. ولا قبلات.. ولا خلوات.. إنه دائما في بيتنا، وأنا دائما بين أفراد عائلتنا.. ودائما قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.

وحبي يكبر مع حيرتي.. إني أحبه.. إنه بالنسبة لي ليس ابن خالتي، إنه حبيبي.. إنه خفقات قلبي.. إنه دنياي.. لست حائرة في حبي له، ولكني حائرة في حبه لي.

والتردد والشك يمزقني.. هل يمكن أن يحبني.. هل يمكن أن يحب هذه الفتاة الدميمة.. هل يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها، فهل تزوجها لأنه يريدها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق عليها.. ولأنه تورط في زواجها.

وبدأ الشك يغلبني.

وبدأت أفكر في الهروب من هذا الزواج، لا لأني لا أريده،

ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة.

إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرى، وبدأت العائلة تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. وفجأة وجدت نفسى أصرخ :

- مش عايزة أتجوز.

وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بديهية بين أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرا كانفجار القنبلة الذرية.

وحاولوا معى كل الوسائل.

وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل.

إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا مازلت بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة، وصرخ فى وجهى :

- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز.. وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده.

وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه عينين خائفتين متوسلتين، وقلت :

- حسن.. أنت صحيح عايز تتجوزنى ؟

ونظر إلىّ كأنى مجنونة وقال :

- أمال يعنى عايز إيه ؟

وعدت أقول وعيناى فيهما هذا الخوف والتوسل :

- أنت متأكد يا حسن.. متأكد أنك عايز تتجوزنى.

ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبنى إليه وضمنى إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى :

- متأكد يا سعاد.. ماتبقيش عبيطة.

وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.

وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوجه.

وقررت أيضا أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ به.

كيف ؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدحم بالجميلات، وأنا لست جميلة.

وخيل إلى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هى أن أجمع كل حياته فى يدى.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر التفاصيل.. واستطعت بذكائى أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة حسن بين يدى، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا التى أشترى له ثيابه وأعدها له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه وتجمعهم به أو تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا البنك الذى يحتفظ فيه برصيده.. وأنا.. وأنا.. لقد أصبح حسن طفلا لا يستطيع أن يتحرك بعيدا عن أمه.. وأنا أمه.. التى تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة جميلة.

ولكن الجميلات لسن فى المجتمع فقط.. إنهن فى المجلات، وفى السينما، وفى التليفزيون.. وأطل فى مرآتى فأرى وجهى ليس جميلا.. وأرى جسدى وقد التصق جلده فوق عظامه.. وألتفت فأجد حسن يبحلق فى صورة امرأة جميلة منشورة فى مجلة، أو يبحلق فى وجه امرأة تطل من شاشة التليفزيون، فتنتابنى موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن.. إن كل دقيقة من عمرى دقيقة خوف.

وأنجبنا بنتنا فايزة.

ثم ابننا زياد.

وعندما حـملت فى خالد قررت أن أتخلص من الحـمل.. لقد بدأت أحس بأنى قد لا أكـون صـادقة مع نـفسـى وأنا ألد هؤلاء الأولاد.. خطر لى مثل ما خطر للناس الذين يتحدثون عنى، من أنى ألد لا حـبـا فى الأطفـال، ولكـن لأقـيـد بهم حـسن إلى.. وحـاولت فعـلا أن أتخلص من حـمل خالد.. وثار حـسن.. إنه يريده.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.

ولكن هذه الفكرة التى سيطرت علىّ جعلتنى شبه مجنونة.. فعـدت أحاول أن أتخـلص من حملى دون علم حـسن.. ولكنى لم أفلح.. وجاء خالد.

والخوف يستبد بى.

ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحسـاس بأنى أحرم حسن من حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امـرأة جميلة، يتمتع بها، ويتزين بها، ويتباهى بها.

والخوف يكبر.

والإحسـاس بأنى جنيت على حسن يكبر.

إنى امرأة معقدة.

عقدتى تمزقنى.

ويمزقنى أكثر محـاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبدو أمامه دائما كامرأة طبيعية.

ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب.

يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة.

وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة.

قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سـراحه من هذه الدنيا الضيقة.. من هذا السجن الدميم.

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت أتعرف على المجتمعات التى تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة فى حفلة.

وعيناى لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهورا بالدنيا الجديدة التى فتحتها له.. يبدو كالطفل وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت شخصيته بين النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رقته.. ويلتففن حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلىّ ويتهامسن.. وأنا أرقب حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواءة بين شفتيه، وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتنى منه شىء.. وأكاد أسمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلىّ.. أسمعها بخيالى.. إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتساءلن كيف استطعت أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.

ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابى ويأسى.

إلى أن تعرفنا بناهد.

إن ناهد مطلقة شابة، شقراء، جميلة، رائعة الجمال.. أنا نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.

وبهرت حسن.

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن ناهد قد أخذت من اهتمام حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان فى بساطة وجرأة، ويتضاحكان كأنهما عاشا العمر كله معا.

وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد.. قررت أن أترك لها حسن ليتزوجها.

لم أتركه لها مرة واحدة.. ولكنى تعمدت أولا أن أصادقها.. أصبحت أقرب الصديقات إلىّ.. نتحادث كل صباح فى التليفون، ونخرج معا لنطوف بالمحال.. ودائما معا على العشاء أو الغداء.. فى بيتى، أو فى بيتها، أو مدعوين عند بعض الأصدقاء.. وحسن دائما معنا. ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت أدعوها إلى الشاى أو العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت وأنا أقول لحسن :

– ناهد جاية دلوقتى.. أقعد معاها لغاية ما أرجع.. مش حاغيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة.

وكنت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكنت أتركهما وحدهما فى البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين، وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحى بنفسها من أجل إسعاد الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى شهيدة.. يريحنى من عقدتى بأنى دميمة.. يرطب أعصابى.. يملؤنى اعتزازا بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت لأجدهما.. حسن وناهد جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان شرائط أم كلثوم.. وأبدو أمامهما مرحة وفى داخلى هذا الإحساس الطاغى الحلو بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم.

وخرجت من البيت وتركت حسن وحده.. وعدت بعد ساعتين أسأله :

– ما حدش ضرب تليفون؟

وقال حسن فى بساطة :

– ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.

وجلست قبالته وأنا أبتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة الشهيد.. وقلت فى صوت هادىء أسيطر عليه بكل إرادتى :

– حسن.. أنت لازم تاخد قرار فى الموضوع ده.

ونظر إلىّ فى دهشة، وقال :

– موضوع إيه ؟

قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى :

– موضوعنا أنا وأنت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل حاجة، إذا حبيت تخلينى أربى العيال وتاخد أنت وناهد بيت تانى.. ما عنديش مانع.. إذا حبيت تطلق أنا.

وصرخ حسن فى وجهى :

– إيه الكلام اللى بتقوليه ده.. إنتى اتجننتى يا ست انتى.

قلت فى هدوء دون أن أهتز :

– أنا عارفة أن ناهد حلوة.

وصرخ حسن :

– وأنا مالى إذا كانت حلوة.. هى بتاعتى.

قلت :

– حاتبقى بتاعتك.. اتجوزها.

وصرخ حسن بأعلى صوته :

– انتى بتخرفى بتقولى إيه.. إيه اللى حصل فى مخك.

قلت وأنا مازلت هادئة :

– أنت لازم تتجوز واحدة حلوة.. حرام.

وعاد حسن يصرخ كأنه جن :

– واتجوز واحدة حلوة ليه.. ما فيه ألف واحدة حلوة،

ما اتجوزهم كلهم.. اشـمعنى ناهد.. ما خديجـة حلوة.. وفيفى حلوة.. وخيرية حلوة.. و..

وقلت وقد بدأ هدوئى يهتز :

– حرام إنك تقعد طول عمرك متجوز واحدة وحشة زيى.

وسكت حسن فجـأة.. ونظر إلىّ طويلا.. ثم قال فى صوت هادىء عميق :

– أنا ما أعرفش أنك وحشة يا سعاد.. أنا أعرف أنى بأحبك.

وبكيت.

●●●

صدقونى أنى لا أبذل مجهودا للاحتفاظ بزوجى.. أعنى أنى لا أتعـمد أن أبذل مـجهـودا خاصـا أكثـر مما تبذله أى زوجـة فاضلة.

وإنى أؤمن الآن بأن ليس هناك زوجة جميلة، وزوجة ليست جمـيلة.. ولا زوجة ذكـية.. وزوجة غـبية.. ولـكن هناك زوجة يحبها زوجـها، وزوجة لا يحبها زوجهـا.. وعندما يوجد الحب يوجد معـه الجمال والذكاء.. يوجد ما يكفى للاحـتفاظ بالزوج مدى الحياة.

وزوجى يحبنى.

وحولنا كـثيرات من النسـاء الجميـلات.. وأنا بينهن قوية.. لم أعـد معـقدة.. إنى قـوية.. أقوى منهن جـميـعا.. واثقـة من نفسـى.. لأنى واثقة من حب حسـن.

اكتشاف الألومنيوم

عاد جمعة عبدالصمد إلى القرية وهو يرفل فى جلباب حريرى، وفى قدميه حذاء أصفر لامع، وعلى رأسه طاقية شبيكة تميل فوق حاجبه.. ويوسع فى خطاه فيخشخش طرف جلبابه بين ساقيه، وكأنه، يهمس «اسكت ما اسكتش».. وفى ذراعيه سبت كبير من الخوص محمل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحماته فى المستقبل،وهدايا صغيرة لأبيه وإخوته وأولاد عمومته.. وفى عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالى الساذج والغرور الطيب.. ويتلفت حواليه فيرى كل شئ كما تركه منذ عشر سنوات.. أو أن خياله أبى أن يعترف أن شيئا يمكن أن يتغير فى القرية وهو بعيد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة المجمعة الذى أقيم خارج القرية.. ولم يلمح طلمبة المياه.. لم يلمح أى جديد.. عيناه ممتلئتان بصورة القرية كما تركها منذ عشر سنوات.. الساقية العتيقة فى مكانها، ولاتزال تدور، وخيل إليه أن الثور الذى يدور بها هو نفس الثور.. وزرعة القطن هى التى تركها فى الغيط.. وقبة الشيخ العتر..

والطرق المعفرة التى تكسوها طبقة من التراب الأبيض الناعم.. والمصرف.. وشجرة الجميز.. ومنذ عشر سنوات ترك جمعة القرية، وانتقل ليعيش مع عمه فى البندر.. وكان عمه طباخا فى سراى المحافظة.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل طباخا فى السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن شهد محافظين، يأكلون الملوخية بأصابعهم كالفلاحين .. واشتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسمع ترحم عمه على أيام زمان،عندما كان يطبخ كل يوم خروفا وعشرة أصناف من الطعام.. ولم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف إليها خياله، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو.. وصاح فيه عمه وهو يرقب تلهفه على تلقى أسرار المهنة :

– يا ابنى هو فيه حد بيطبخ الأيام دى.. دول كلهم صنفين تعملهم أمك وهى مغمضة.

وبرغم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها أمه، ولا تذوقها فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحمة الرستو، والحمام الكولباست والسمك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض عمه تولى مكانه.. ولم يشك البيه المحافظ.. بل أشاد بمهارة جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طباخ السراى.

وفكر جمعة فى الزواج.. وكان تفكيره محصورا فى الزواج من إحدى بنات البندر، فهو قد تغير، لم يعد من أبناء القرية.. إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلاليب الصوف والحرير، وأحيانا يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهوة المحطة، مع أصدقاء كلهم أفندية ويقرأ الأهرام كل مساء.. يقرؤه بصعوبة.. ولكنه يقرؤه.. لقد تغير كثيرا، ولم تعد تصلح له إلا إحدى بنات البندر. وبرغم ذلك تردد طويلا.. لا يدرى لماذا.. إن تفكيره فى الزواج ينقصه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو

جـالس فى المقـهى.. أو وهو جـالس فى غـرفتـه يتـحـدث مع جـيـرانه.. ولكنه لا يكاد يـتـحرك مـن مـجلسـه حـتى ينسى موضوع الزواج.

إلى أن جاء إلى البندر مـدبولى عبدالرحـمن ليجرى عـملية جراحية فى المستشفى الأميرى.. وعم مدبولى يملك ثلاثة أفدنة فى القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة - حـميدة عبدالصمد - الذى يملـك فـدانين فـى نفس الحـوض، حـزازات قـديمـة، ومشاحنات كانت تتسع حتى تخـرج العائلتان لتواجه إحداهما الأخرى فى معارك عنيفة، ولكنها كـانت كلها معارك بيضاء قد يسقط فيهـا جرحى، ولكن لم يحدث أن سقط فيهـا قتيل.. وقد هدأت هذه الحـزازات مع الزمن، وبعد أن اسـتقر الـعرف الذى يحكم مياه الرى بين أرض عم مدبولى، وأرض عم عبدالصمد.. وأصبـحت العائلـتان على علاقـات طيبـة وإن ظلت كل منهـما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها.

وقـد أرسـل عم عـبـدالصـمد إلى والـده جمـعـة يخـبـره بوصـول عم مدبولى إلى البنـدر لإجراء عملية فى المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره ويرعى شئونه.. وكان عم عبدالصمد يبدو فى خطابه سعـيدا مـعتزا بابنه الذى يقـيـم فى البندر والـذى طلب منه مدبولى أن يوصيه عليـه.. وفـرح جمعة أيضا وازداد اعتزازا بنفسه وهو يشعر أنه سفير القرية فى البندر والمسئول عن شئون رعاياها..وذهـب لتوه لزيـارة عم مدبولـى.. وهـناك التـقى بابنته بهـية.. ولم يصـدق أن هذه هى بهيـة.. والله البت كبرت.. ونظـر فى عينيها، تطـلان عليـه من فوق الشـال الذى تلفـه حول طـرف أنفـها فى حيـاء وخفـر، وأحـس أنـه وجـد بيـتـه فى هاتيـن العـينيـن.. قـرر منذ اللحـظة الأولى أن يتـزوجها.

وفاض جمعة بكرمه على عم مدبولى وبهية، واستعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولى إلى سرير فى الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سريرا آخر لابنته التى تقوم على خدمته.. وهو دائما معهما.. عم مدبولى راقد فى سريره، وهو مع بهية يحدثها عن حياته فى البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرأة فى شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفى عينيها أمل كبير.. أمل لم تكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنسانا كبيرا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تزدادان قربا من عينيه.. وكما رأى فى عينيها صورة بيته، رأت فى عينيه بيتها.

وما كاد عم مدبولى يعود إلى القرية بعد شفائه ومعه ابنته، حتى أرسل جمعة خطابا مستعجلا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل.

●●●

وعاد جمعة إلى القرية بعد عشر سنوات ليعقد قرانه على بهية.

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر احتفالا بعودة ابنه.

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط :

– وما نكتبش الخميس الجاى ليه.. ايه لزمة اللكاعة دى..

وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب:

– أصل لسه النحاس.

ونظر اليها جمعة بعينيه الساخطتين وقال :

– نحاس إيه.

قالت :

– النحاس.. الحلل، والطشب.. أبويا بيـقول إن الحلة اللى أد الكوز بقت بأربعة جنيهات.

وقال جمعة :

– ومين قال له احنا عايزين نحاس.

ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت :

– نتجوز من غير نحاس يا جمعة.

وصرخ جمعة :

– نحـاس إيه يا بت.. النحـاس ده بطل من زمـان.. وقـالت بهية ودهشتها تشتد :

– أمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه.

وقال جمعة وهو يبتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة :

– فى الألومنيوم.

قالت بهية :

– فى إيه ؟

وقال جمعة وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

– الألومنيوم.

وقالت بهية وهى تمصمص شفتيها تعجبا:

– وإيه بأه الألومنيوم ده.

قال جمعة :

– ده أحـسن من الـنحـاس.. أخف، وأرخص، وعـمـره ما يجنزر.. مش عايز تبييض ووجع قلب زى النحاس.

ونظـرت إليـه بهـيـة كـأنها تنظـر إلى مجـنون، وعـادت تقول :

– نتجـوز من غير نحـاس يا جمـعة.. نحاس أحـمر.. البلد تقول علينا إيه ؟.

وصرخ جمعة :

- يا بت اتنورى بأه.. ماحدش دلوقتى بيجيب نحاس.. دى سراية البيه المحافظ كلها مافيهاش حتة نحاس واحدة.. كله ألومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه :

- نحاس أحمر أفرح بيه.

وعاد جمعة يصرخ :

- وما تفرحيش بألومنويم أبيض ليه.. اسمعى يا بهية.. كلمة واحدة.. أنا مش عايز نحاس فى بيتى.. ولو أبوكى جاب نحاس حابيعه واشترى ألومنيوم.

وردت بهية والدموع تنبثق من عينيها :

- أتجوز من غير نحاس يا جمعة.. أنا أتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعة.

ثم فزعت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها.

●●●

فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة، وجلست بجانبها وقالت :

- إيه يا ست أم جمعة الحكاية.. يعنى إيه سى جمعة مش عايز نحاس.. احنا كنا اشتكينا ولا قصرنا.. النحاس حاييجى لو دفعنا بدل الجنيه ألف.

وقالت أم جمعة :

- يا أختى ماحدش قال كده.. بس أصل ابنى جمعة متنور وعايش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن مننا يا فلاحين. وقالت أم بهية :

- ودى عايزة فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

– أصل سي جمعة بيقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ وبتغسل في حاجة مش عارفة اسمها إيه كده.

وقالت أم بهية :

– بأه في ذمتك يوم ماتجوزي بنتك فردوس، ترضى تجوزيها من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

– والنبي لو بنتي لقت راجل زي ابني جمعة لأمشي كلامه عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الرك يا أختي ع الراجل.

وقالت أم بهية :

– والراجل يبهدلنا في وسط البلد.. وده كلام تقوليه برضه.. والله بنتي ماتتجوز من غير نحاس أبدا.. نحاس أحمر وملعلع.. واللي مش عايز نحاس مايتجوزش بنتي.

وقالت أم جمعة وهي تصرخ :

– لا يا أم بهية.. ماتغلطيش.. اللي مش عايزنا مش عايزينه ده ابني كانت بتجري وراه كل بنات البندر.. غيرش أنه ابن أصل وحب ياخد من بلده.

وقالت أم بهية وهي تصرخ هي الأخرى :

– والله يا أختي ضفر بنتي بكل بنات البندر.. هو حد كان شده من قفاه وقاله تعالى اتجوز من عندنا.. وعلى إيه.. ما بلاش.. بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز.

وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..

●●●

وفي المساء اجتمع عم مدبولي، وعم عبدالصمد، والشيخ يحيى إمام الجامع، وإخوة جمعة، وأولاد مدبولي، ودار الحديث حول النحاس والألومنيوم.. وقال جمعة وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه ويبدو هادئا :

- اسمع يا عم مدبولى.. دى شغلتى.. أنا طباخ وأعرف اللى ينفع واللى ماينفعش.. والنحاس الأحمر ما بقاش ينفع.. الناس الأكابر بتستعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل ألومنيوم.. وطشت ألومنيوم.. وأطباق ألومنيوم.. ليه.. اشمعنى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن الألومنيوم مابيجنزرش.. مافيش خوف أنه يسم حد زى النحاس المجنزرما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس يبيضه كل يوم والتانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول ماتشيل حله واللاطشت نحاس يقسم وسطها، تشيل حله ألومنيوم خفيفة.. زى الريشة.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و.

وقاطعه عم مدبولى قائلا وهو يستغفر الله :

- شوف يا ابنى.. الصراحة أحسن.. أنت دفعت مهر ستين جنيه، وأنا لغاية دلوقتى دفعت فوقهم أربعين.. جبنا السرير، والمراتب، والحصر، والدولاب، وفاضل النحاس.. والنحاس متأخر علشان الفلوس. والله شهيد على ما أقول.. أنا مستعد أدفع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكر أنك بتوفر على.. لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاى يعنى جاى.

وصاح جمعة :

- يا عم مدبولى مش مسألة فلوس.. أنا عايز أعيش زى الناس المتمدنة.. حد شريكى يا عالم.. أنا عايز ألومنيوم.. ما أبقاش حر فى بيتى يعنى.. وبكره حاتعرفوا أن الألومنيوم أحسن من النحاس.

وقال عم عبدالصمد وهو غير مقتنع تماما بكلام ابنه :

- ماتسيبه يا مدبولى.. خده على عقله.. مادام مش عايز نحاس.. خلاص.. يوفر.

وقال الشيخ يحيى :

– الواقع أننا نحكم على مجهول، فليس منا من يعرف هذا الميموم.

وقال جمعة :

– اسمه الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى :

– لا نعرفه.

وقال مدبولى :

– نعرفه واللاما نعرفوش.. مش ممكن بنتى تتجوز من غير نحاس.. عايزين تفضحونى فى وسط البلد.. وبلاد المركز كله.. عيب يا عبدالصمد.. عيب يا جمعة..

●●●

والقرية كلها تتحدث عن النحاس والاكتشاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم.

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء آخر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء.

والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقا من الألومنيوم :

– هذا صفيح، أو كالصفيح.

وصرخت أم بهية :

– يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح.

قال شحاته :

– لا.. مش صفيح.. ده زنك.

وقال عباس :

– دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعة ناوى يسكن فى مستشفى.

وقال عوضين :

– دى حاجات خوجات وأنت الصادق.. الخواجه اللى كان فاتح فى المركز كان بيطبخ فى بتاعة زى دى.

وقالت بهية والدموع فى عينيها :

– أنا عايزة نحاس أحمر.

وصرخ مدبولى :

– اسمع يا جمعة.. الجوازة مش نافعة.. بهية مش لك.. من بكره حايتكتب كتابها على عباس.. احنا لا من أهل البندر.. ولا خوجات.

وصرخ جمعة :

– بهية بتاعتى.. مراتى.. قريت فاتحتها.. ماحدش يقدر يتجوزها غيرى.

واشتد الصراخ.

وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب.

وعائلة عبدالصمد فى جانب.

وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء.

وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبدالصمد إلى أرض مدبولى وقطعوا المياه عنها.. ولحهم أولاد مدبولى.. وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن يعلم مايجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها إخوة بهية.

وقتل جمعة.

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولى وأخو بهية.. ثأرا لجمعة.

وبعد شهور مات عبدالصمد حسرة على ابنه.

ومات فى نفس الشهر مدبولى حسرة هو الآخر على ابنه..

●●●

ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم.

والثأر لا يزال قائما بين العائلتين.

ثأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا.

وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها الوعاء الألومنيوم الكبير الذى اشتراه جمعة يوماما.. وقالت لها فتحية :

– والنبى يا أختى ده أخف من الداهية النحاس اللى أنا شايلاها على دماغى.

وقالت عزيزة :

– ويستحمل زى النحاس وأكثر.

وقالت فتحية :

– ولا يصدى.. ولا يجنزر، ولا عايز تبييض ولا حاجة.

وقالت سنية :

– وبيقولوا أرخص.

وبدأت نساء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم.. دون أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم.

واحدة فقط كانت تذكره وفى قلبها حسرة كبيرة.

بهية.

وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانيها من الألومنيوم..

الهزيمة

أحمد.. عزيزى :

رأيتك أمس.

بعد خمسة عشر عاما، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم تكبر.. بشرتك السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم الذى يحمل ملامح شخصيتك القوية.. عيناك الجادتان الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفتة أمرا عسكريا.. ابتسامتك الدائمة التى تشق خطا رفيعا بين شفتيك الغامقتين الممتلئتين.. و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون على ما أعتقد.. وبرغم ذلك فإنك مازلت تبدو كما تركتك فى الأربعين.

والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتنى.. أنا تغيرت كثيرا يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى.. جفناى سقطا فوق عينى.. تشققت شفتاى.. لم أعد هذه الزوجة الصغيرة الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما.. بل لم أعد أبدو فى سنى.. سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير.. وأحاول كثيرا أن أنكر هذه الحقيقة، فأقف أمام مرآتى وأشد جلد وجهى بكفى، وأفتح عينى على وسعهما لأدارى تجاعيد

جـفنى، ولكن لا أكـاد أرفع كفى، حـتى يعـود جلدى ويرتخى، ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت.

نعم.. لقد تغيرت كثيرا يا أحمد.

وعندمـا رأيتك، وتداريت خلف فـانوس النور أرقـبك وأنت تركب سيارتك، أحسست فى لحظة واحدة أنى عدت إلى عمرى معـك.. إلى شبـابى.. إلى أيامنا.. وابتســمت ابتسـامة كـبيـرة زغردت فـى صدرى بل كـدت أضحك كمـا تعودت أن أضــحك وأنا صـغيرة.

وبعد أن ابتـعدت، واخـتفيت عن عـينى ربما لسنوات طويلة أخـرى، تذكرت، وابتـسامـتى لا تزال تزغرد فى صــدرى، أنى لم أقل لك حتى اليوم لماذا هجرتك هكذا فجأة.. وتركتك حائرا، تردد فى دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا.

ولكن كل مجنون له منطقه.

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التى هجرتك فجأة.

عزيزى أحمد.

أتذكر.

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشـرة من عمرى عندما التحقت طالبـة بكلية الآداب.. وبهـرت بك منذ اليـوم الأول الذى دخلت فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى التى بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبـهرن بك.. لا لأنك أستاذ فـحسب، ولا لأنك رجل وسـيم فـحسب، بل لأنك أيضـا أنيق، ولأنك تملك سيارة أنيقة تقف علـى باب الكلية كالفرس الأصيل فى انتظار فارسـها.. وكل ذلك كان يجـعل منك حلما جميلا لكل بنت.. ولكنى لم أبهـر برجـولتك ولا بسيـارتك، ولكنى بهـرت بعلمك.. هذه هى الحـقيقـة.. ومنذ أن انساب صـوتك إلى أذنى

عمـقا رزينا يروى لنا قـصة الفلسـفة.. اسـتغـرقت، فيك كـما أسـتـغرق فى كـتـاب ممتع.. اخـذتنى كلى.. عـقلى، وخـيـالى وأعــصــابى.. وأصـبـحت أنـتظرك.. أو على الأصح أنـتظر محاضرتك.. بشوق ولهفة. كأنى أنتظر اللحظة التى أدخل فيها إلى فراشى وأستغرق فى كتابى المفضل.

وكنت أيامـها مجنـونة بشىء اسمـه الثقافـة.. كنت أريد أن أكون مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة.. وكنت أعـيش مع أمى وحدنا ننـفق من معـاش أبى الذى توفى منذ سنوات.. لم يكن لى أخ ولا عم ولا خال.. عم واحـد سافر إلى كندا وبقى هناك وانقطعت الصلة بينـه وبيننا.. وربما كانت هذه الوحدة.. وحدتى فى الحياة.. هى التى دفعتنى إلى القراءة والثقافة، لقـد قرأت كثيرا، أكثر مما تتـصور.. ووجدت اخوتى وآبائى، وأعمـامى وأخوالى، فيمن قـرأت لهم.. كانوا هم الذين يصنعون لى مبادئى وتقاليدى، وشخصيتى.. وكنت أحبهم كما أحب عـائلتى.. لـقـد جـعلت منهم عـائلـتى.. وكنت أخـاف من الفيلسوف « بيكون» كما أخـاف من أبى.. وأحترم أرسطو كما أحـترم جـدى.. وأناقش سارتر كـما أناقش ابن عـمى.. إلى أن التقيت بك.. فأصبـحت أنت أقرب واحد إلىّ ممن أقرأ لهم.. ربما لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجـرد حروف ترسم لى ثقافتى، أما أنت فكنت ثقافة حية.. كنت لحما ودما.. وكنت صورة حلوة للثقافة.. صورة أنيقة جذابة.

وبرغم ذلك فلم أحاول أن أعرفـك وأنا طالبة.. لم أحاول أن أجرى وراءك بعد المحاضرة كمـا تجرى وراءك بقية الطالبات.. فإن ثقافـتى أشاعت فى نفسى نوعا من التـعالى، أو من مركب العظمة، إذا أردنا أن نستعمل الـتعبير العلمى.. ولا شك أن هذه الثقافة قد حمـتنى فى هذه السن من كثير من نزوات الشباب..

بل إنها فى الواقع كـانت تنفر منى كل الشبـاب والرجال الذين يحاولون مغـازلتى، فقد كان الواحد منهـم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علـمية فى الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافـتى، فلا يلبث أن يتضاءل أمامى، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقـافة قد حمتنى.. فقد أصـابتنى أيضا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحسـاسية المرهفة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كـثير من الأحيان كانت هذه الحـساسية تنطلق من تفسيـر كاذب غبى لتصرف من التـصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعا عن كبرياء كاذب أيضا.

لهذا لم أحـاول أن أقدم لك نفسى كـأى طالبة تقدم نفسـها لأستاذها، وكنت أنت كـريما مع نفسك معتزا بشخـصيتك، فلم تحاول أن تفـرض نفسك علىّ، كأى أسـتاذ يفرض نفـسه على طالبـة.. ولكن أكـثـر من مـرة التـقت نظراتنا وأنـت تلقى محـاضراتك، ورأيت فـى عينيك تسـاؤلا عجـيبـا مهذبا كـأنك تسـألـنى فى أدب : مـتى وأيـن.. ولعلك رأيت فى عـينى هذا الإصـرار العجـيب الذى يثـيره إحـساسى بالتـعـالى مخـتلطا بإعجابى وإيمانى بك.

وقـد بقى هذا الإصـرار قائمـا.. برغم أن إعـجـابى بك بدأ يتطور.. بدأت صورة الأسـتاذ المثقف تخـتلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك.. ولكنى قاومت بعنف.. قـاومت حبك، وقاومت فيك صورة الرجل.. وحاولت أن أتشبث بكل قواى فى حائط الثقافة الذى يحـمـينى من الـرجـال.. من الحب.. أنت لا شىء سـوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى.

إلى أن انتـهى العام الدراسى.. ونجـحت فى مـادتك بأعلى درجة حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن.

وفى فترة الأجازة، مرضت أمى.

واشتد بها المرض.

وبدأت بين آهاتها التى تنطلق من آلامها الفظيعة تلح علىّ أن أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو الحل الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن لى سوى ما يتبقى من معاش أبى.

وثارت كبريائى.

وثار عنادى.

إن الزواج معناه القضاء على كل أحلامى.. ولكن تأوهات أمى وذبولها يوما بعد يوم، كان ينقلنى من سماء كبريائى، ومن أحلام ثقافتى، إلى الواقع.. إلى الأرض.. إننى فعلا وحيدة.. وفعلا ليس لى من يعولنى بعد أمى.

وبدأت أفكر فى الزواج.

ولكنى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بأول الواقفين على الباب، وكان أكثرهم إلحاحا، وكان أيضا أغناهم.. إنه تاجر.. يعمل بالتصدير والاستيراد.. ويملك مصنعا صغيرا للحلوى.. وعمارة.. وخمسين فدانا.

ولم أكن أنتظر أن يكون مثقفا.. ولكن غرورى جعلنى أتصور أنى أستطيع أن أجعل منه إنسانا مثقفا.. أن أضع كل ما فى عقلى من كتب، فى عقله.. وربما كان استسلامه لى فى فترة الخطوبة القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى الطويلة التى ألقيها عليه قد أثار غرورى أكثر، وطمأننى أكثر إلى أنى أستطيع أن أجعل منه الرجل الذى أريده.

وتزوجنا بعد شهرين من إعلان خطوبتنا.. وانتقلت معه إلى بيتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثا باذخا.

وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة علىّ.

ولم يبق لى إلا زوجى، وثقافتى بكل مـا تثيره فىّ من تعال وكبرياء كاذب.

وقـبل أن ينقضـى الشـهـر الأول بدأت أكتـشف هذا الرجل الذى تزوجته، بعد أن أزاح عن وجهه الصمت الذى كان يختفى وراءه فى فترة الخطوبة، اكتـشفت أنه لم يكن يريدنى كإنسانة مثقفـة مهذبة، ولكنه فقط كان يريدنى كـامرأة.. وقد عرف منذ الليـالى الأولـى أنى لا أسـتطيع أن أكـون المرأة الـتى يريدها.. واكتشفت أيضا أن هذه الشقة الفخمة الباذخة الأثاث لم يؤثثها لى، ولكنه أثثهـا ليصطاد فيـها عمـلاءه الذين يتاجر مـعهم، أو يسـتـفيـد منهم فى تجـارته.. ويومـا بعـد يوم، أصبـح أكثـر صراحة.. إن مـوائد القمار تمتد فى بيتـى كل ليلة.. وزجاجات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونسـاء لسن بالزوجات يصحبن الرجال.. وهو يريدنى أن أرضى بكل ذلك، بل أن أشتـرك فيه.. يريدنى أن ألعب القـمار، وأن أسكر، وأن أدخن الحـشيش، وأن أصـادق هؤلاء النسـاء.. بل أكـثـر من ذلك.. يريدنى أن أكـون سهلة مـع أصدقائه الرجـال.. أن أكون لطيـفة.. دمى خـفيف.. أتحمل غـزلهم.. و.. واعتـرضت.. حاولت أولا أن أعـترض فى هدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقا آخر للحياة أنظف وأجدى من هذا الطريق.. كنت أريد أن أقنعه بمتعـة العقل.. إن العقل وحده يستطيع أن يـحقق شيـئا أكثـر مما تحققـه الشهـوة، والغريزة الإنسـانية البـدائية السـخيـفة.. ولكنه كـان يسخـر منى ومن ثقافتى.. ويتهمنى بالبـرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثـر منى.. إلى أن ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلا من أصدقائه حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أسـتـطع أن أهجر هـذا الزوجـة حتى بعد أن ضـربنى،

فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته.
كل ما فعلتـه أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجـهت أصدقاءه باحـتقـارى.. وانزويت فى مكان ضيق من البـيت أنا وكتـبى، أقـرأ.. وأقرأ.. ولا أعـتـرض على شىء مما يجـرى فى بيـتى.. ولا أطلب من زوجى شيـئا.. الشىء الوحيد الذى طلبـته هو أن يسمح لى باستكمال دراستى الجـامعية، بأن أعود إليك.. ولكنه رفض ساخـرا.. وقال لى إن الأجدى علىّ أن أتعلم كـيف أكون امرأة.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة، وأقنعت نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين هذا الزوج معركة رهيـبة صامتة.. معركـة بين كبرياء الإنسان المثقف وكـبرياء الإنســان الغنى.. معركـة بين الثقـافة والمال.. ولم أكن أحس بلحـظات الهـزيمة إلا عـندما يـأتى إلىّ ويطالب بحقـه فى جسدى كـزوج.. وأعطيه جسـدا أبرد من لوح الثلج، أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى.
عزيزى أحمد.
فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة إليك.. كنت فى حـاجـة إلى إنســان من عالمى يشـعـرنى بأنى مازلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط هذا الظلام البــشع، ليطل علىّ مـن خـلالهـا قـبس من النور النظيف.. نور الـعقـل والروح.. وكنت أنت هذه النافـذة.. وقـد تذكرتنى منـذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنـك كنت دائما فى انتظارى.
وتعـددت مكالماتنا فى التليـفون كل يوم نتـحدث.. أناقـشك فيما أقرؤه.. وأطير معك فى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا كـافيـا، كان لابد أن نلتـقى.. وأنت تلح على لأحـدد لك موعـد اللقــاء.. وأنا أرفض فى رفق.. ولـم تكن تدرى كم أتعـذب وأنا

أرفض.. وكم أدفع من أعصابى ثمنا لإرادتى.. لقـد كنت أيامها أحبك.. أحبك حـبا كاملا، وعندما كنت فتـاة كنت أحبك بعقلى، وخيـالى، وعـواطفى.. ولكنى بعد أن تزوجت أصـبحت أحـبك بجسدى أيضـا.. إن الزواج يربط الجسد بالعاطفـة.. والعاطفة بالجـسـد.. ليسـت هناك امرأة تسـتطيع أن تحـب بعواطفـهـا فحسب.. إن الفـتاة بعد أن تضبح امرأة لا تـسـتطيع أن تفصل خيـالها عن واقـعهـا.. لأنه لا يصبح هناك شـىء من التقـاليد ولا من الإحـسـاس الفـسـيولوجى يفـصل بينهـا وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حـرمنى منه هذا الزوج، العـقل، والقلب.. والجسـد.. وبرغم ذلك قـاومت، لأن استـسـلامى كـان معناه هزيمـتى.. هزيمـة كـبريائى.. كـان معناه أنـى لم أعد أفـضل من هذا الزوج الذى أحتقـره.. كان معناه أن كل ما يفصل بيـنى وبينه هو اختلاف فى المزاج لا اختلاف فى المبادىء وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قـد بدأ يسافر كـثيرا إلى الخـارج، ويغيب فى كل مـرة شـهـرا وشـهـرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يـا حبيـبى.. لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مـرة من الخارج.. وجاء إلىّ.. وأسلمـته هذا الجسد البارد، وأنا أحتقـره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيدا عنى وهو يصرخ ويعلـن فى وجهى خطة انتقـامه الرهيب.. إنه لن يعود إلىّ.. سيتـركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكـثر من ذلك.. سيـتركنى أعـول نفسى.. ولنـر إذا كانت ثقافتى ستنفعنى.. وقبل أن يـخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذه معه.

خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال.

وقـد قلت لك كل ذلك فى التليفـون.. وكنت رقيـقـا حنونا ورجوتنـى أن أعتبـرك مسـئولا عنى إلى أن أسـتطيع أن أدبر أمـرى.. وعـرضت على أن ترسل لى مـبلغـا من المال.. ولكنى رفضت.. قلت لى أن أعـتبـر المبلغ على سبيل الـقرض، ولكننى رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى رفضت.

وبدأت أواجه أياما غريبة.

إنى أقيم فى شقة فخـمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة، وليس مـعـى ولا قـرش.. كـيف آكل.. وكـيف أدفـع حـسـاب التليفـون، والنور، وبائع الصحف.. و.. و.. أشـيـاء كـانت تبدو صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات.

واقـترضت من صـديقـتى فـتحـيـة التى تقيـم فى الشقـة المجاورة، عشرة جنيهات.

وبعد أيام وجـدت فى البيت بضـع زجاجـات الويسكى التى تركها زوجى وراءه، فأعطيتها لفتحية.. وأعطتنى ثلاثين جنيها بعد أن خصمت العشرة جنيهات التى أقترضتها منها.

وأنا حـائرة.. يائسة.. ولم أكن أسـتطيع وسط هذه الحـيرة البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسـى.

ذهبت إليك.

ولم نكن فى حاجـة إلى مقـدمات.. لقد اسـتمرت المقـدمات بيننا أكثر من عـامين.. وكان توتر أعصابى كفـيلا بأن يدفعنى إليك كلـى.. أعطيـتك نفـسـى منذ اللقـاء الأول.. لا.. لم أعطك نفسـى، بل أخذتك، فربما كنت فى حاجـة إليك، أكثر من حاجتك إلىّ.

وقـبل أن أنصرف من بيـتك.. لمحـتك تدير ظهرك وتخـرج محفظتك وتلتقط منها مبلغا من المال، وتدسه فى حقيبتى.

لمحتك.

وأحسست بتيار بارد كـريح الثلج يسرى فى عروقى كلها.. ولكنى سكت.

لم أتكلم.

حملت حـقيبـتى كأنى لم ألمح شيـئا.. وتركتك تـقبلنى على جبينى البارد، وخـرجت عائدة إلى بيتى، وفى كل خطوة تكتمل فى خيالى صورة بشعة لنفـسى.. خط بعد خط يرسمه خيالى حتى اكتـملت الصورة.. صورة مومس.. نعـم صورة مومس.. امرأة تبيع جـسدها.. وصدقنى أنى حاولت كثـيرا أن أبعد هذه الصورة عن خيالى.. حاولت أن أقنع نفسى بأنك تحبنى، ولأنك تحبنى فـأنت مسئـول عنى كزوجى وأكثـر.. وحاولت أن أقنع نفسى بأن مـا أعطيتـه لى هو مجرد قـرض.. حاولت كثـيرا.. ولكن عبثا.. صورة المومس تكبـر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. لقـد ذهبت إليك وأنا إنســانة مثـقفـة وزوجـة التاجـر الكبيـر عبدالقادر عبدالله، وخرجت من عندك.. مومسا.

ووصلت إلى بيتى وانكفأت على وجهى أبكى.

بكيت كثيرا.

بكيت الإنسانة المثقفة التى فقدتها.

بكيت كبريائى وعنادى.

بكيت هزيمتى أمام الزوج الذى أكرهه.

وأفـقت من بكائى وفى رأسى قـرار حـاسم.. لن أراك بعـد اليوم.. لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شىء يستطيع أن يقنعنى يومـهـا بأنى لست مومـسـا، وأننى فقط امـرأة فى حاجة إلى معاونة حبيبها.

كنت أعـرف أنى لن أذهب إليك بعـد اليـوم إلا وأنا أشـعـر بحـاجتى إلى النقـود، وأنت تشـعر بواجـبك الذى يحـتم عليك إعطائى النقود.. ستظل النقود بيـننا عنصرا من عناصر حبنا.. أو علاقـتنا.. ولم يكن هذا فى حسابـى أبدا.. لم أحبك أبدا وأنا أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحـبك وأنا أشعر بحاجتى إلى ثقافتـك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك.. ولن أذهب إليك أبدا وأنا فى حاجة إلى مـالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطينى مالا.. إنك تجرحنى.. تهـيننى.. لا تقل لى أن أعتبـرك زوجى، فأنت لست زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع مجتمع.. مجـتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا ليس لنا مجتمع.. إننا نختـبىء من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومـسا.. امرأة تبيع جسدها.. وأنا لا أريد أن أكون مومسا.. لا أريد.

ولن أراك بعد اليوم.

وعندما اتصلت بى فى التليـفون تسألنى لماذا لم أتصل بك، قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى :

– أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن.

وسمعتك تقول كلاما كثيرا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة.

وتعود تقول كلاما كثيرا.

وأنا صامتة.

وأعدت السماعة إلى مكانها.

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعت صوتك فيها.

وبرغم ذلك.. فقـد أنفقت النقود التى أعطيتـها لى.. كنت فى حاجة إليهـا.. كم أعطيتنى.. خمسين جنيهـا على ما أذكر.. وقد صرفـتها فى أقل من شـهر.. وعدت واقـترضت من صـديقتى فتحية.. وأنا أعيش حياتى كالمشلولة، ولا أدرى كيف أتصرف..

ولا مـاذا أفـعل.. أفكر فى أن أعـمـل.. وفى أن أدرس.. ولكنى لا أعمل شيئا، ولا أدرس شيئـا.. وفتحية تعرف عنى كل شى.. وتعرف أيضا قـصتى معك، وقد حاولت كـثيرا أن تقنعنى بأن أعود إليك، على الأقل إلى أن أحل مـشكلتى مع زوجى.. ولكنى أرفض فى عناد وفى كـبرياء.. وأنت قـد أخذتك العزة بنـفسك بعد أن قطعت حـديثك فى التليفون، فلم تعد تحـاول أن تتصل بى.. وزوجى لا أدرى مكانه، ومكتبـه يتولى دفع إيجار الشـقة كل شـهر.. فقط إيجار الشقة.

ودعتنى فتحية إلى قـضـاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل وسيم مهذب.. أخـذت فتحية تروى أمامـه قصة زوجى معى.. وهو يواسينى.. ويقتـرح على الحلول.. ثم اتصل بى بالتليفون فى اليـوم التـالى.. و.. و.. ولا أطيل علـيك.. ذهبت إلى لقـائه.. واستـسلمت وأنا مـذهولة.. لم أكن أدرى أيامهـا أين أقف، ولا ما هـى مبادئـى، ولا ماذا أقـاوم من أجله.. وفى نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التى انتهى فـيها منى، وبدأت أرتدى ثيابى.. لمحته كـما سبق أن لمحتك.. لمحـته يفتح محـفظته، ثم يدس فى حقيبتى مبلغا من المال.

وخرجت من بيته وخـيالى يرسم لى نفس الصورة.. وخط وراء خط واكتملت الصورة.. صـورة المومس.. والصورة تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. وانكفأت على فراشى أبكى.

ورفضت فـى عناد عجيـب أن أذهب إلى لقائه مـرة أخرى.. برغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صـديقتى فتحية فى إقناعى.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أنى إنسانة مثقفة وحرم التاجر الكبير عبدالقادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.

وبرغم ذلك أنفـــقت النقـود التى أعطاها لـى.. كم أعطانى..

أربعين.. ربما كان ينوى أن يعطينى خمسين، ثم اختصر عشرة جنيهات فى آخر لحظة.

و..

كم رجل.

كثـيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مـرة واحدة.. كل منهم أذهب إليه كزوجة تخـون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كـمومس.. ولم أكن أذهب إلى واحـد إلا بعـد أن تنتهى النقـود التى أخذتها من الذى قـبله، وبعد أن أقترض من فتحـية عشرة جنيهات.. وفتحية تقول عنى إنى مجنونة.

وكنت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكنى لم أعد أحس بأنى محترمة وأنا ممسكة بالكتـاب كما كنت أحس دائمـا.. لم أعد أحس بأنى من عائلة أرسطو وهكسلى وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها.

يتيـمة.. بلا عائلة.. وبـلا مال.. وبلا زوج.. وبلا ولد.. وبلا حبيب.. بلا أحد يحـترمنى وأحترمه.. حتى نفسى لا أحـترمها ولا تحـتـرمنى.. وانطلقت أضحـك ضـحكات مـجنونة.. لقـد هزمت.. هزمت منذ زمـان طويل، وهزمت أمام صـاحب المال.. المثقف هزمته حاجـته إلى المال.. وقسوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت درويش.. إن مدحت كـان أكثر أصدقاء زوجـى إعجابا بى، وأكثرهـم جرأة على مغازلتى، وكنت أصده وأحتقره.. وكان زوجى يجن كلما صـددته.. إنه موظف كـبير.. صـاحب نفوذ.. فكيف أعامله هذه المعـاملة.. لن أعامله هذه المعـاملة.. وضحكت له فى التليـفون، ودعـوته لقضـاء السهـرة معى.. فى بيـتى.. وذكرته بأن يأتى معه بزجاجة ويسكى..

وجاء مدحت.

وزجاجة الويسكى.

ولم يترك لى شيـئا فى حقيبة يـدى قبل أن يتركنى، ولكنه اقتنع بأن زوجى يجب أن يعود إلىّ وتعهد بأن يـعيده.. وقهقه قهـقهة عـالية فظيعـة وهو يقول : هو جوزك حـايلاقى واحدة زيك فين.

وعاد الزوج.

وعادت مائدة القـمار، وزجاجات الخمر، وجـوزة الحشيش، والنسـاء اللاتى لسن زوجـات.. وأنا أشارك فى كل ذلك.. ألعب القمار، وأدخن الحشيس، وأسكر.. و.. كل شىء.

إنى أعيش فى هزيمتى.

وزوجى يعيش فى انتصاره.

شىء واحد حميتـه من هزيمتى ومن انتصار زوجى.. حبى لك، حميـته بابتعادى عنك.. فقـد أحببتك كمـا كنت، منتصرة.. لا كما أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد :

الآن.. وبعد خمسة عشر عاما.. لعلك تستطيع أن تفهمنى.

وشكرا لأنى رأيتك.

وشكرا لأنك لم ترنى.

لا تذبحوا الفراخ ..

لا تقتربوا مني.
أنا مجنون.
وجنوني قاتل
ولكني أختلف عن بقية المجانين بأني أعرف أني مجنون.. وأعرف بالضبط متى أصبت بالجنون.. إنه جنون من النوع المتقطع.. فترات تمر بي، ثم أفيق منها، وأعود إنسانا عاقلا يستطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسبابه، وإن كان لا يستطيع أن يقاومه.

متى جننت ؟

في الحادية عشرة من عمري.. منذ حوالي الثلاثين عاما.. وبرغم أن جسمي أيامها كان يبدو أضخم وأكبر من عمري، إلا أني كنت صبيا رقيقا خياليا.. كنت أهوى الرسم.. وأقضي معظم أوقات فراغي أرسم هذه الرسوم الساذجة التي يرسمها الأطفال.. وكنت أحب أن أجلس مع جدتي، أستمع منها إلى

حكاياتها الحلوة المثيرة.. وكنت أجرى إلى أبى كلما وقف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلا يملأ السلام قلبه وخياله.

وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التى تقع عند بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها سيرا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر فى طريقنا بشارع الحسينية.. الشارع الذى يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتديا بدلة، وفى قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم.. فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يبططوه، ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح.

وكنت أنا وزملائى لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى مدرستنا، حتى تمتلىء قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدارن، ونحن نتلفت حولنا حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو إلى أقرب مقهى نحتمى بصاحبه ونحن نصرخ :

– والنبى يا عم.. حوش عنا العيال يا عم.

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحمينا فعلا، ويطرد الصبية من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى

نحتمي في دكان آخر أو في مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان، ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم نكن دائما نصل سالمين.. كنا كثيرا ما نصل وطرابيشنا مبططة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة.

وكانت أخطر المناطق التي نمر بها في شارع الحسينية، هي منطقة ضريح سيدى البيومي، وهي تقع في النصف الأول من الشارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومي هم أشرس أولاد الحسينية، وأكثرهم تحديا وحقدا على أولاد العباسية.. ربما لقرب حيهم من حينا.. ولأنهم كانوا - حتى الأطفال - ينفسون عن حقد طبقي يلح عليهم.. فأولاد البيومي كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغار الباعة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباسية أغلبهم من أولاد الموظفين، وضباط الجيش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباسية تنقسم إلى حيين. الحي الشرقي ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحي الغربي ويسكنه صغار الموظفين، وصغار الضباط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير.

وكنا نعود من المدرسة في المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا في يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصا أولاد سيدى البيومي. وبدأت اجتماعاتنا في الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحمايتنا أثناء ذهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها.

وقد اقترحت أن نذهب ونقابل المعلم إبراهيم عرا فتوة

الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود حسنين :

– ما ينفعش.

وقال واحد منا :

– أمال إيه اللى ينفع ؟

وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده :

– نحاربهم.

ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت.

وصرخ محمود :

– احنا خايفين ليه.. إذا كانوا هم ولاد الحسينية برضة احنا ولاد العباسية.

وهلل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم.

وكان محمود أكبرنا سنا.. إنه فى الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذي يقع فى شارع رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه حارتنا.. وكان محمود يسيطر علينا جميعا.. لا لأنه أكبرنا وأقوانا، ولكن لأنه أيضا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار المشروعات التى يشركنا فيها جميعا.. أقام مرة مشروعا لخيال الظل، وكان هو بنفسه الذى يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان يتقاضى من كل واحد منا مليما أجرا لمشاهدة خيال الظل.. وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع الدندرمة، وصنعها بنفسه وأخذ يبيعها لنا.. لم يكن رأسه يكف عن المشروعات.. وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من هذه المشروعات.

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية، وقابلوا شلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدى البيومى.. طبقا لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم :

– اطلعوا لنا برة.

ورضى أولاد سيدى البيومى أن «يطلعوا بره».. أى فى أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحسينية ولا أرض العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم.. فى مكان يسمى «أرض العيون» يقع فى صحراء العباسية.. وذلك فى يوم الجمعة عقب الصلاة.

وبدأ محمود يتولى القيادة، ويضع الخطط.. وأخذنا معه إلى أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبدأ منه هجومنا.. وجمع قطع الحجارة فى أكوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشفها العدو.. ثم بدأ يدربنا على استعمال «المقلاع» الذى تقذف به الحجارة من بعد كبير.. وأخيرا جمع بعض العصى الغليظة وأخذ يشق كل عصا من طرفها ويثبت فيها قطعة من حجر البازلت الثقيل ويربطها بقطع من القماش، وخيوط من السلك، فتصبح كبلطة من التى كان يستعملها الإنسان الحجرى، أو التى يستعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر.

وكان إحساسى حتى هذا اليوم احساسا سلبيا، لم أكن أشعر بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ القتال.. ولم أكن أدرى كيف أتصرف.. كنت فقط أزامل أولاد الحارة فى كل ما يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.

إلى أن وضع محمود فى يدى إحدى «البلط» التى صنعها..

وقد اختارنى فى فرقــة حملة البلط لأنى ـ كما قلت ـ كنت أبدو أكبر وأضخم من سنى.

وما كـاد محمود يتـرك البلطة فى يدى حتى احســست بها تأخذنى معها.

تشدنى إليها.

وأحسست بأصابـعى تلتف حول مقبضـهـا، فى قوة، كأنها التصـقت بها.. أحسست أنى لن أسـتطيع أبدا أن أفك أصابعى من حـولهـا.. ليـست أصـــابعى هى التى التـفت حـول البلطة.. ولكنها البلطة التى جذبت أصـابعى إليها ولفتها حـولها، كأنها مغناطيس.

وأحسست بشـىء يتحرك فى صدرى.

لا أدرى ما هو.

كأنه عفريت كان نائما ثم بدأ يسـتيقظ.. ويتثاءب.. إنى أكاد أسمع صوت تثاؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى، ويتمطى.. لعل هذا العفريـت كان نائما فى صدرى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضـاء.

لا..

أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة.

هى التى رفعت ذراعى.

هى البلطة.

وأصابعى مـلتفة حـولها لا تريد أن تتـركها.. لا تسـتطيع.. حتى عندما ذهبت لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكانت أحس

بها - بالبلطة - تهزني في نومي إلى أن أستيقظ.. أستيقظ فعلا.. وتشدني من فراشي.. وترفع ذراعي، ثم تهوى بنفسها في الفضاء.. ثم أعود لأنام، إلى أن توقظني البلطة مرة ثانية.

وكان اليوم التالي هو يوم المعركة.

وجاء جيش سيدي البيومي.

واصطف جيشنا في خطوطه.

وبدأ التقاذف بالطوب.

والبلطة في يدي.

وهذا الشيء الذي في صدري يصرخ.

ثم فجأة وجدت البلطة تشدني وتجري.. تجري بي.. تجري بي نحو خطوط الأعداء.

ورفعت البلطة ذراعي، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من أطفال البيومي.

لقد رأيت هذا الطفل.

رأيته بعيني.

رأيته قتيلا والدم ينزف من رأسه.

وأذكر أني ضحكت.. أو أني سمعت صوتا كالضحك.. ولا أدري أأنا الذي كنت أضحك أم البلطة.. ولكنه كان ضحكا كالصراخ.

ولا أذكر شيئا بعد ذلك.. أفقت وأنا في فراشي أعاني من حمى خطيرة، ارقدتني أكثر من شهرين.

ولم يكن أحد قد أكتشف بعد أني مجنون.

●●●

وقـد انتقلنا من حــارة نصيـر بعد مـعركـة أرض العيـون، وسكنا فى مصر الجديدة، وخصوصا أن أبى ارتقى أيامها إلى الدرجة الخـامسة.. وخرجت من مـدرسة السلحدار، والتـحقت بمدرسة مصر الجديدة.

وأصــبحت إنســانا هادئا.. أكـثر هـدوءا من شاب فى مـثل سنى.. أصبحت منطويا.. نفورا من الناس.. لم يكن نفورا ولكنه كان أشبه بالخـوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف عليهـم.. أخاف عليهم مـن نفسى.. لا أدرى لماذا.. ولكنى فـعلا كنت أخاف علـيهم إلى درجة أنى لم أحـاول أن أتخذ صـديقا.. لم يعد لى أصدقاء.

وفى صدرى دائـما شىء ثقيل.. نـائم.. كأنه هذا العـفريت الذى ولد معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم.

إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمرى.

وكنت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمح لى أبى أن أذاكر على مكتبه.

وعلى مكتب أبى «فتـاحة ورق» على شكل خنجر.. مقـبضه يملأ الكف، وسلاحه رفيع حاد.

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى.

كان ينظر إلى فعلا.

وكنت أشـيح عنه وجـهى، ولكنى لا أكـاد ألتفت حـتى أراه لا يزال ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر.

وجذب الخنجر يدى نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه.. ثم رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب.

ولا أستطيع أن أفك أصابعي من حول مقبضه.. كأنها التصقت به بمغناطيس.. وهذا الشي بدأ يتحرك في صدري.. إني أكاد أسمعه يتثاءب مستيقظا من النوم.. وأكاد أراه داخل صدري يمد ذراعيه ويتمطى.

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر يشدني من فوق مقعدي، ويرفع ذراعي في الهواء، ثم يهوي بنفسه على سنية.

ورأيتها.

رأيتها تحت أقدامي والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكا.. لا أدري هل أنا الذي ضحكت أم الخنجر.

ولكنه كان ضحكا كالصراخ.

ولا أذكر شيئا بعد ذلك.

وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها الخنجر.. فقد أصابها في كتفها وفي رقبتها.

وربما عرف أبي أيامها أني مجنون.. ولكنه أخفى جنوني.. أبت عليه كرامته، أن يعلن جنوني.. واستطاع أن يسوى الجريمة مع أهل سنية.. عالجها ودفع لها تعويضا.. وكان يقول لمن سمع الخبر إني كنت مرهق الأعصاب من أثر المذاكرة، وأن سنية أثارتني، ولكن أمي صممت أن تدعو الشيخ إدريس ليطرد عني العفاريت التي تركبني.

وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسي، وأحرق من حولي البخور، ثم اختلى في إحدى حجرات البيت ليلة كاملة وهو عار من كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة، وصينية عشاء فاخرة.

وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح - بعد أن ارتدى ثيابه - ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن أذبحها بيدى.

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداووننى بالتى كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن يعودونى ذبح الفراخ.. منطق.

ولكنه منطق فارغ.

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هى التى تريد أن تقتل.. البلطة هى التى تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقونى أننى لا أريد أن أقتل.

ولكن أمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة.

يا أمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضا.. ويذبحون أيضا الفراخ والحمام والبط والخراف والجاموس.. والعصافير.

يا أمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدى السكين.. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدى السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضا الناس.. قد تذبح أبى.. أخى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة.

إنها سلاح يا أمى.

والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى على صاحبه.

●●●

أنا الآن موظف.

ولا أحد يدرى بجنونى.

وفى كل صباح أنظر إلى الجندى الذى يقف على باب الوزارة، وقد علق مسدسه على جانبه، نظرة إعجاب وتقدير.. بل تقديس.

إنه بطل.

بطل كبير.

لا لأنه يحمل سلاحا..

ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه.

إنه بطل لأنه يملك سلاحه، وليس سلاحه هو الذى يملكه.

وأنا خائف.

خائف دائما.

خائف على الناس.. من جنونى.

صائد الغزال..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره، وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان.. فالنتينو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام المرآة، يسبسب شعره.. ويستعرض عضلاته.. ويهندم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية صغيرة.. أقدر أكلم محمود من فضلك.. وينتفش صدرى كالديك الرومى فرحا بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد يزأر، وأصيح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه يحادث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحادث البنات كأنه ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه طويلا، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب وراءه.

إنى فرح بمحمود.

فرحتى بشبابى.

أنا أيضا كنت فى شبابى، زير نساء.. دون جوان..

فالنتينو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامى.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنت تذهب إلى السينما وحدها.. أبدا.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقزقزة اللب. أما على أيامنا فكانت تتطلب ذكاء وصبرا، وحرفنة.. كان صيد البنت أصعب من صيد الأسد!

وكنت فى شبابى أسكن فى حى الدراسة.. وكانت لى ميزة كبيرة على جميع شبان الحى.. فقد كنت ساقط بكالوريا.. مثقف يعنى.. وكنت موظفا فى وزارة الأشغال.. كاتب أرشيف.. وكنت أرتدى بدلة وطربوشا.. أفندى يعنى.. ثم إنى كنت وسيما، أنيقا، فهلويا.. كنت أملا كبيرا لكل بنت من بنات الحى.. ولكنى لم أكن أصطاد فى حينا.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشاب يغار على بنات الحى كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذى يتصدى لبنت من بنات الدراسة، وقعته سوداء.

كانت أماكن الصيد المفضلة عندى هى شارع الموسكى، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر.

وكانت الجميلات على أيامنا يختبئن فى الملاءات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسن الملاءة اللف.. وكان هناك كثيرات من جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسكى والغورية وهن مرتديات الزى الإفرنجى.. الفستان.. والبالطو.. ولكنى كنت دائما - ومازلت - أفضل الملاءة اللف.. الملاءة اللف لها طعم آخر.. إنها شىء كقشرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة ناعمة.. سايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين..

الملاءة اللف هى المرأة.. المرأة بكل ما فيهـا من سحر.. وروعة.. وغموض.. وأحلام.. إنها تلف القمر فى سواد الليل.. تلف النور فى الظلام.. يا أرحم الراحمين.. أموت فى اللف.. واللف يتعب.. وقـد كنت أتعب كـثـيرا.... كنت أمـشى وراء البنت سـاعـات.. وأحـيانـا أياما.. أدخل مـن دكان إلى دكـان.. ومن شـارع إلى شارع.. ومن حـارة إلى حارة.. وعيناى الظامئـتان لا ترتويان من الجسد الملفوف الذى يتلوى أمامى.. والملاءة مشدودة حوله تبرز كل خط فـيه.. والذراع البضـة تطل منها حينا، وتخـتفى حينـا كأنها عـمود من نور البـرق يشق كبـد الليل.. والكعـبان يرقصان فـوق الشبشب المطرز كأنهمـا كعبا غزال.. رقـيقان.. مـشربان بالحـمرة.. شـهيـان كقـلب التفـاحة.. يتـاكلوا أكل.. يا باشـا.. يا أرض احــفظى مـا عليكى.. يا خـويـا رد علينا.. يا جمـيل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقـيل.. و.. وكل كلمة من هذه الكلمات لهـا معنى خاص، وتوقيت خـاص.. ومناسبة خاصـة.. إنك لا تستطيع أن تلـقى الكلام هكذا جزافا لمجرد أنك تحفظه أو لمجرد أنك وقح.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصـاص فى الهواء، فـيفر الغـزال.. كل كلمة لهـا معنى، ولها مناسـبة.. «يا باشـا» غـير «يا جمـيل».. و.. «ارحم بأة» تقال فى مناسـبة تختلف عن «التـقل صنعة».. والصيـاد الماهر هو الذى لا يطلق الرصاص إلا فى المليان.

وكانت كل رصـاصـاتى تصـيب.

وكنت أتلقى الجـواب مـن حـركـات الملاءة اللف.. إن الملاءة اللف لهـا لغـة خـاصــة.. ولهـا قامـوس خـاص.. يحـتـفظ به المتخصـصـون فى صيد الغزال من أمثـالى.. علم واسع، يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر طويل.

هل تريد أن تعلم شيئا من قاموس الملاءة اللف؟

اسمع يا سيدى.

إذا فردت البنت ملاءتهـا بذراعها الأيمن ثم عادت وضمـتها حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى.

وإذا رفـعت يدها وشـدت طرف الملاءة من فـوق رأسـهـا، فمعنى هذا.. كلامك على رأسى.

وإذا ضمت الملاءة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى بها كل صدرها، فمعنى هذا .. أبويا ورايا.

وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البـرقع فوق أنفها، فمعنى هذا.. أنت فى عنية.

وإذا طرقـعت بكعب الشبـشب أثناء سيـرها.. فمـعنى هذا.. وقعتك سودة.

و..

كل حركة، إشارة لها معنى.

إنه قاموس.

علم واسع.

والله أعلم.

ولم يحدث لى إطلاقا أن طرقع كـعب الشبشب فى وجهى.. أبدا.. بعد كلمة أو كلمـتين، تطلق على البنت سهم عينيـها، وما تكاد تلمحنى حتـى تفرد ملاءتها بذراعهـا اليمنى.. وحصلنى.. بعض البنات كن لا يحـتـملن كلمـة والثـانية.. وبعـضـهن كن يعذبننـى وراءهن ساعة وسـاعتين.. وأحـيانا يومـا ويومين.. والصبر يا جميل جميل.. وينتهى صبرى دائما بأن تفرد البنت دائما ملاءتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى.

وأحصلها.

تســيــر فى شــارع الموسكى وأنــا وراءها، حــتى نصل إلى ميدان العتـبة الخضراء.. وكان ميدان العـتبة على أيامنا هو بر الأمان.. تســتطيع فيــه البنت أن تتحرر من تحــفظها بعـيدا عن أعين تجــار الموسكى والغورية، وحماشــة أولاد البلد.. وتسمح لى بأن أسير بجانبـها.. ونركب عربة حنطور ـ أو تاكسى ـ إذا كنا فى أول الشهــر.. أو ندخل حديقة الأزبكية.. وفى الجـبلاية أمان من العواذل، وعسكرى البوليس.. ثم أنا وبختى.. يا طلعت على مــا قسم، يا إمــا جميلــة دمها خــفيف وقــرفتــها خــفيـفة وبحــبوحــة.. لقد وقــعت لى قطع فى منتهى الجــمال.. غــزلان يا بنى.. غزلان.. وأنا الصياد.. صياد الغزال.

إلى أن وقعت فى قسمتى، نفيسة.

شى لله يا ست.

اللهم اجعل كلامى خفيف عليها.

رأيتها أول مرة فى شارع الموسكى أيضا.. قـوامها صغير.. زى اللعبــة.. والملاءة اللف تلتف حولهــا كأنها ســتأكلهــا أكلا.. وجسدها مشــفى من غير عضم.. ومشيــتها.. يا أرض احفظى مــا عليكى.. كــأن كل قطــعــة منهــا تمشى وحــدها.. صــدرها يسبقهــا.. وعجزها يجرى خلفها.. وعندمــا لمحت عينيها تطلان من فوق البــرقع خيل إلى أنى أصبت.. إيه ده يا جــدعان.. دول مش عــينين دول.. دول نجــوم.. دول دنــيــا.. عــالم.. تهت فى عينيها يا رجال.. خدينى وراكى يا ست قبل ما أتوه.

ومشيت وراءها.

وأطلقت أول رصــاصــاتى.. هدى الخطوة يا جـــميل.. ثم رصاصة أخــرى.. وبعدين معاك بأة، تعبنا.. ورصــاصة ثالثة.. ورابعة.

ولا حركة.

ولا إشارة.

مشيت وراءها شارع الموسكى كله إلى أن وصلت إلى ميدان الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطررت أن أقف.. فالمنطقة التى تقع فـيما وراء الباب الأخضـر لا تصلح للصيد.. إنها منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب.

وعدت يائسا.

ولكنى فى اليـوم التـالى لمحـتـهـا.. نفـيـسـة.. فى شـارع الموسكى.. فى نفس المـوعد.. رب صـدفـة خـيـر من ميـعـاد.. ومشـيت وراءها.. برضه كده يا جـميل.. هم علمـوك التقل ده فين.. أموت يعنى ولا أموت.. يا واد بحبحها شوية.

ولا حركة.

ولا إشارة.

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.

وعدت وأنا مصدوم.

وفى اليوم الثالث.

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنـا إلى الباب الأخضر.. الباب الأسود.. الباب المهبب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه بت مـفـعـوصـة زى دى تغلبـك الغلب ده كله.. عـيـب عليك يا حسنى، يا صياد الغزال.

واليوم الرابع.

والخامس.

أسـبوعـين.. ثلاثة.. وقد أصـبحـت المسألة خطيـرة.. البت جننتنى بجد.. ما بنامش واللى خلقك.

ثم كان يوم.

ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا أشعر بأنى قد فقدت الثقة فى نفسى.. صوتى ضعيف منهك.. وعيناى الوقحتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشى كأنى منساق وراء قدرى.. اتأخرت ليه النهارة يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب قاسى.. ارحم يا سيد الراحمين.. ولا يعنى أموت.

وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمنى وعادت وضمتها.

جاءت الإشارة.

حصلنى.

أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله إيه.

ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع.

إشارة أخرى معناها : «أنت فى عنية».

تسلم عنيكى يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوخنى يا بتاع الدوخة أنت.. قوللى على فين وأنا وراك.

وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.

حصلنى.

ما تخفش يا حتة من جوة.. محصلك.

ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسكى إلى النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضى.. وبين كل خطوة وأخرى تعطينى إشارة.. حصلنى.. يا خويا محصلك.. بس على فين.. وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقة من صديقاتها.. ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا ساعة شهد.. ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حاكلك أكل.

تخـرج من حـارة وتدخل حارة.. وعـينای مـركـزتان على ظهرها.. وكعبى قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل في عـروقـى.. عـقلى فى النـار.. قلبى فى النار.. نـار وقـايدة يا جميل.. خلصنا بأه.

وفجأة.

وأمام دكان بقال.

استـدارت نفيـسة إلى، وألقت بملاءتهـا من فوق رأســها ثم قذفت بفردة الشبـشب من قدمها، والتقطتهـا بيدها من الهواء.. ثم هجـمت على.. وهى تصـرخ.. يا أفندى يا عـرة.. يا إبرة مـصـدية، يا مـاسح، يا مـاسخ.. يا.. وانهـالـت علىّ ضـربا بالشبشب.. وخرج البـقال من دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق منهـا عشـرات.. كبـار وصغـار.. كلهم يضربوننى.. وصـوت نفيـسة، أعلى من صوتهم.. وشـبشبـها يحكم التـصويب على رأسى خـيـرا من صفـعـاتهم ولكمـاتهم.. ولم أصـرخ.. عـيب يا حسنـى.. لا تصرخ.. ولا توسلت.. عيب.. أنـت من الدراسة يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال.. وقفت أتلقى شبشب نفيسة ولكمـات أهل حتـتهـا، وعينـاى مركـزتان على وجهـها.. إنهـا جمـيلة.. حتى وهى تردح.. جمـيلة بنت الإيه.. جمـيلة ولو أنها راجل.. وصـدمت نفيـسة بهدوئـى.. وقوة احتـمالى.. والتـقت عيناها بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت تلهث.. وتقاوم شـيئا فى داخلهـا.. أحسست أنهـا تعود أنثى.. بنتا.. ثم سمعت صوتها وهى تفتعل الحزم والمجدعة.. وتشـخط فى أهل حتتها:

– بس يا دوكشة.. بس يا واد أنت وهوة.. كفاية يا حمادة.. وكف الضرب عنى.

ونظرت إلى وهى تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحتفظ بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامى :

- أنت عايز إيه منى يا جدع أنت.. بقالك شهر داير ورايا.. عايز إيه.. ما تتكلم.

وقلت فى هدوء.. وأنا أبتسم لها ابتسامة ساخرة، أسخر بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنى أوع تنخ.. وقلت كلمة واحدة :

- عايزك.

تعجبنى يا واد يا جامد.

وقالت نفيسة فى غيظ :

- شوفوا الراجل وبجاحته عايزنى يا عنى ايه يا جدع أنت.

قلت :

- عايزك وخلاص.

قالت :

- اللى عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله.

قلت :

- وماله.. نتجوز.

ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، وقالت :

- تلاقيك بتتجوز كل يوم واحدة.

قلت :

- أبدا وحياة شبشبك.. ده بس علشان خاطرك يا جميل.

وقالت فى حدة :

- طيب اتفضل اتجوزنى.. آدى أبويا، وآدى أخويا.

وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى حمادة.. أخوها.

وقلت :

- وفين أمك ؟

ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر منى.

- تعيش أنت.

قلت :

- عرفت تخلف.. الله يرحمها.

ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت :

- تحبوا نكتب دلوقتى.. ولا نجيب أمى الأول.

وقـالت وهى ترفع حـاجبـهـا الآخـر وتلم ملاءتـها حـول جسدها :

- لا.. روح هات أمك.. يا روح أمك.

قلت :

- ييجى معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ما لقكيش.

وقالت وهى تبدو مسيطرة على الحارة كلها :

- روح معاه يا حمادة.. ليتجوز فى السكة.

قلت كأنى أصبحت زوجها فعلا :

- أعملى لى كباية شاى على بال ما نرجع.. أنا أحب الشاى تقيل.

وهممت أن أنصرف، فصاحت بى :

- تعالى هنا يا أفندى.. ما ترجعش لأمك بالشكل ده.

وجذبتنى إلى دكـان أبيهـا البقال، وأمـسكت بفوطة بللتـها بالماء، وأخذت تمسح وجهى من أثر الكدمات، وهمست :

- واسم حضرتك إيه بأه ؟

قلت :

- حسنى.. حسنى عبدالعاطى.

قالت :

– ويا ترى بتشتغل شغلة ثانية.. ولا بس معكساتى.

وضحكت قائلا :

– مـوظف فى وزارة الأشـغـال.. مـاهيـتى ثمـانيـة جنيـه وكسور..

وعـدت أمـلأ عينـى من وجهـهـا.. جـمـيلة بنت الإيه.. وأنا صياد.. صياد الغزلان.. لا تستطيع غزالة أن تفر منى.

وتزوجت نفيسة.

ومن يوم أن تزوجتهـا إلى اليوم وأنا أخاف من شبشـبها.. وقد أقلعت عن صيد الغزال.. غـزالتى تساوى كل ما فى شارع الموسكى من غـزال.. وتفرغت لمسـتـقبلى.. درست من جـديد، ونلت البكالوريا ودرسـت الحقـوق وأنا مـوظف فى الأشغـال، ونلت الليسـانس.. وأنا الآن محامـى.. ونسكن فى العباسـية.. وعندنا تليفون وتليفزيون.. وسيارة نصـر.. ومحمود.. نفيسة هى أم محمود.

وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان.

سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب.

التضحية الأخيرة..

كانت هوايتى منذ كنت طالبا فى المدرسة الثانوية، هى الخطابة، وكتابة البحوث الاجتماعية.. والذى يهوى الخطابة نادرا ما يهوى كتابة البحوث.. فالخطابة مواجهة الجماهير، وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير.. والخطابة هى أن تضع عقلك على طرف لسانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف.. على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع العقل.

هوايتان متنافرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائى.. وفى لحظات أملك عواطفهم، وأهزها هزا عنيفا.. أبكيهم على زميل توفى.. أو أحمسهم للخروج فى مظاهرة.. أو ألهب أكفهم بالتصفيق

لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه.. وفى الوقت نفـسه كـان لى فى كل أسـبوع بحث مكتـوب عن إصلاح نظـم المدرسة.. أو عن التنشـيط الاجتـماعى.. أو.. أو.. بحوث أقـدمهـا لناظر المدرسة أو للأسـاتذة المشرفين، فـتلقى اهتمامهم وإعجابهم.

وقادتنى هوايتى إلى كلية الحقوق.

ولم أكن أحلم بأن أكـون وزيرا، أو زعيمـا، كمـا كان يحلم بقيـة طلبة الحقوق فى عـهد ما قبل الثـورة.. أبدا.. كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محامـيا.. محاميا كـبيرا.. أخطب.. وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية والسياسية.

وتفوقت فى كلية الحقوق.. وتفوقت فى هوايتى.. وأصبحت جميع الهيئـات السياسية والاجتماعيـة داخل الكلية، وخارجها، تدعونى إلى الخطابة فى اجـتماعاتها، وإلى إعـداد البحوث عن نشـاطها.. ولم أكـن منتمـيـا إلى واحدة من هذه الجـمـعيـات، ولا إلى حزب من الأحزاب.. أبدا.. كان كـل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضـوع الذى أخطب فيه، أو الذى أعـد بحثى عنه.. سـواء كـان هذا الموضـوع يهم الوفـديين أو الشـيوعـيـين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم هو عـدالة القضية التى أدافع عنهـا.. وقد كنت حريـصـا فعـلا على ألا أتكلم إلا فى القـضـايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العـدالة أصبحت تعرف بى.. فإذا أعلـن أنى سأخطب فى اجـتماع مـا آمن الناس كلهم بأن القضـية التى ستبـحث فى هذا الاجتماع، عـادلة.. وفشلت كل الوسـائل التى تعـرضت لهـا كى أشـتـرك فى الدفـاع عن

قـضـايا لا أومن بعـدالتهـا.. فـشل التهـديد، والإغراء.. وفـشل التشهير والنفاق.. وبقيت صلبا قويا، فخورا بصلابتى وقوتى، ومكانتى التى اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامى».

كنت واثقـا من حصولى على اللـيسانس.. ونلتـه فعـلا عام ١٩٤٣ بمجـمـوع ٨٥ فى المائة.. والـتـحـقت بمكتب الأسـتـاذ عبـدالتواب عبدالحـى، محاميـا تحت التمرين.. وذهل الأسـتاذ عـبدالـتواب.. ذهل من المـذكرات القـانونيـة التى أعـدها، ومن الأسلوب الجديد الذى اتبعه فى المرافـعة أمام المحكمة.. أسلوب هادىء.. رنان.. يتسلل إلى قلب القـاضى، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السـهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية.

ولكنى كنت مصرا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبدالتـواب، كنت أرفض المساهمة فيهـا، لا لشىء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصارح الأستاذ عبدالتواب، برأيى هذا، فلم يكن يـغضب، بل ازداد تقـديره لى، واحـترامـه لشخصيتى، إلى حد أنه بعد عـام واحد من اشتغالى فى مكتبه، قرر لى مـرتبا عشرة جنيـهات فى الشـهر.. برغم أن المحـامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب.

وبرغم ذلك.

برغم هوايتى.. وبرغم كل هذا النجـاح الكبيـر.. وبرغم حلم العـمر.. هـجـرت المحامـاة قبـل أن أتم فتـرة التمـرين.. ذبحت

هوايتى.. دفنت نجـاحى.. مـزقت حلم العـمـر.. وضـحـيت بالجنيهات العـشرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تـعنى شيئا كبـيرا بالنسبة لى.. فـقد كان والدى يعطينى حـتى ذلك الحين ثمانيـة جنيهـات فى الشهـر إلى أن أستطيع أن أعـول نفسى.. وكانت أمى قـد ادخرت لى مائة جنيه لتـدفعها مهـرا لى عندما أتزوج ابنة عـمى.. إنى أحب ابنة عمى.. ومنذ قـبضت العـشرة جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع ابنة عمـى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضـحيت بالعـشرة جنيـهات أيضـا.

ماذا حدث.

حدث أن جـاءنى فى بيتى الأسـطى محمـد أحمـد محـمود المكوجى، الذى يقع دكـانه تحت بيـتنا مبـاشـرة.. وأبلغنى أنه قبض على ابن عمه عبدالمجيد علوان، متهما بسرقة مجموعة من ولاعات السـجائر.. من المحل التجـارى الذى يعمل فيه.. وأقسم لى أن علوان مظلوم، وأنه ضـحية اضطهـاد رئيسـه الذى كان يطلب منه أن يذهب إلى بيـته لينظفـه ولأن علوان كان يرفض، فقد دبر له الرئيس هذه التهمة.

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

– علوان ابن عمى فقـير.. ما حلتوش حاجـة.. وبيجرى ورا سبع عيال.. غير أمه.. ومظلوم والله.

ولا أدرى لماذا تحمست فورا لهذه القضية.

ربما لأنها أول قـضية تأتى إلـى مباشـرة، وباسمى، لا عن طريق مكتب الأستاذ عبدالتواب.

وربما لأنى أردت أن أثبـت لأهل الحى أنى أقف بجـانـبـهم.
والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذا.

وربما لأنى أصـــبت بنـوبة من العطـف المفــاجــىء على عبدالمجيد علوان وأولاده السبعة.

ورفـضت أن أناقش الأسطى مـحـمد أحـمـد محـمـود فى الأتعاب.

وذهبت إلى الأستــاذ عبدالتـواب المحامى واستـأذنته فى أن أتولى القضـية بنفسى ولحســابى، فقد كان يجب أن أســتأذنه لأنى مازلت تحت التمرين.. وسمح لى الأســتاذ عبدالتواب.. بل قال لى :

– اعـتبـر نفسك صــاحب هذا المكتب.. كل إمكانيـات المكتب تحت أمرك.

وشكرته.

وأسرعت إلى النيـابة ونسخت مـحضر التـحقيـق بنفسى. فإنى لم أرد أن أشغل كتبـة المكتب فى نسخه، ما دام المكتب لن يستفيد شيئا فى هذه القضية.

وقرأت التحقيق بإمعان.

إن الســرقة كـبيـرة.. مائـة ولاعة مــاركة رونســون.. ثمن الولاعـة الواحدة يـصل إلى خمـســة جنيهـات.. أى أن قـيمـة المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه.

والإتهام قوى.

لقد عـثروا على ولاعتـين من الولاعات المســروقة فى منزل عبدالمجيد علوان.

وذهبت لزيارة المتهم فى السـجن، وقلت له:

– اسمع يا علوان.. قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك.. كل الحقيقة.

وأقسم عـلوان أنه لم يسرق.. وأقـسم أن رئيسه يضـطهده وأنه هو الذى سرق الولاعات ودس اثنتين منهـا فى بيته حتى يثبت عليه التهمة.

وأفاض علوان فى التفاصيل.

كلها تفاصيل معقولة.

وعلوان رجل عجـوز، تبدو الطيبـة على وجهه.. والشـقاء.. والفقر.. وإرهاق العمر الطويل.

وتأثرت.

تأثرت جدا.

وانتهى علوان من كلامه، ثم قال :

– أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!

ولم تعجـبنى هذه الكلمة.. لم أسترح لهـا.. ماذا يعنى.. ربما لم أفهمه تماما.. لا يهم.. وتبخر قلقى بسرعة وقلت لعلوان :

– اطمئن.. براءة بإذن الله.

وانهمكت فى القضـية.

كل وقتى.

كل عقلى.

ولا أريد أن أروى التفـاصيل.. ولكنى اسـتطعت بعد جـهاد عنيف أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها.

ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها.

وقريبـه الأسطى محمد أحـمد محمـود، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهات، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمســين جنيها. من مهر ابنة عـمى.. على أن أردها لها بعد أن يحكم بـبـراءة المتـهم.. إني واثـق من أني ســأحـصـل له على البراءة.. ورفضت أمى.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمى.. وتماديت فى الإلحاح محاولا إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كمحـام.. وأخيرا خضـعت أمى بلا اقتناع وأعطتنى الخمـسين جنيها، دفعتها فى خزينة المحكمة ليفرج عن علوان.

وأفرج عنه.

وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة أنها لمعة خبث.

– كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!!

ورفض صاحب العـمل أن يعيد علـوان إلى عمله، فأعطيـته خمـسة جنيـهات قرضــا إلى أن يستطيع أن يجـد عمــلا آخر.. وأعطيته خمـسة جنيهات أخرى.. وخمسة جنيـهات ثالثة.. لقد ذهبت إلى بيـته ورأيت ما فـيه من فقـر.. رأيت أولاده السبـعة حفـاة.. عراة.. تطمس القذارة وجـوهـهم.. ولم أكن أستطيع أن أتركـه دون أن أمـــد له يد العـون.. إنه مظـلوم.. إنى واثق أنه مظلوم.

وعاد علوان يردد :

– كله يترد لك يا أستاذ.. الصبر طيب.

ولم أفهم ما يعنيه.

وحماسى لا يفتر.

بل إنى كدت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل.. إن حـالة علوان لا تحـتـمل التـأجـيل.. إنه لا يسـتطيع أن يعـمل والإتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع.

وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم يدرسـون القـضـيـة مـعى.. ويدلون بآرائهم.. والكتـبـة يساعدوننى.. صحيح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عنـدما كلفتهم بمهمـات تتعلق بالقضيـة.. ولكنهم كانوا متحمسين.. بل إنى نقلت الحـماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم «محامى علوان»!

وبعد ستة أشهر.

حكمت المحكمة.

براءة.

لم يكن الأمـر سـهـلا.. أبدا لم يكن سـهـلا أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبدالتواب على هذا الحكم.. وزملائى.. واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام.

جاءنى عـلوان فى بيتى، وهو يحـمل فى يده لفافـة كبـيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

- أنا راجل حقـانى يا أستـاذ.. وأنت عملت كتـير.. جـميلك ما يتنسيش.. ودول ميت ولاعة.. يبقى لك منهم خمسين.

ثم فتح اللفافة التى فى يده.. ولمعت أمام عينى الولاعات.

الولاعات المسروقة.

وصـرخت :

- إيه دول يا علوان.

وقال علوان ضاحكا :

- دول الولاعات إياهم.. كنت مخبـيهم عند مراتى الجديدة.. والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم.. إنما السوق واقف.. وأحسـن الواحد يتـقل.. قلت أجيب لك نصـيبك تتصرف فيه بنفسك.

ولم أرد.

بدأت أشعر بدوار.

وقال علوان :

- ودى فوق البيعة.. احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ.

ووضع أمامى قطعة حشيش.

وصرخت :

- شيل الحـاجات دى من قدامى.. شيلهم بأقـولك.. شيلهم أحسن أوديك فى داهية.

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عينى علوان.. وقال :

- جرى إيه يا أستـاذ.. ما هو ما تبقاش طماع.. كـفاية كده قوى.

وعدت أصرخ :

- أخرج بره.. أخرج بره.

وجمع علوان الولاعـات، وأعاد قطعة الحـشيش إلى جيـبه، واختفى من أمامى.

وسقطت فى هاوية الصمت.

لا أريد أن أتكلم.

لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أمى.. ولا خطيبتى.

وألم ساحق يفرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنى وقفت بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور، يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات، وأنى كنت أدافع عنه لأطالبه بنصيبى فى المسروق.

وأفقت من نوبة الصمت.

وعدت إلى المكتب.

وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا.. ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبدالتواب نفسه.

وهجرت المحاماة.

إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير.

وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعدنى عن الناس.. ولكنه يحمينى منهم.

إنى أخاف من الناس.

أخاف.

ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف.

الحب والعدالة ..

يا حضرة القاضى.

أرجوك.. دعنى أتكلم.. إنى لا أستطيع أن أحتمل كل هذا الكلام الذى يقال هنا.. سواء الكلام الذى يقوله الدفاع أو كلام ممثل النيابة.. إنهم يتكلمون على أساس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن يسألوا أنفسهم أولا.. هل هناك جريمة؟.. أين هى الجريمة يا سيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو الاعتداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول إنى اعتديت على النظام العام وصدقنى ، يا سيادة القاضى ، أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسبق لى أن تشرفت بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه

الجريمة.. السيد وكيل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويرا فى أوراق رسمية.. ماذا استفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى زورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير.

لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا أستطيع أن أسكت.. ولا أستطيع أن أنتظر حتى يأتى دورى فى الكلام.. بل لا أطيق أن أسمع كل هذه النصوص القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانبا.. دعك من القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلىّ كإنسان.. إنك لم تجلس على منصة القضاء إلا لأنك إنسان كبير.. الإنسان فيك هو الأصل لا القاضى.. الإنسان فيك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فيك الإنسان، وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.

شكرا يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن الشكر.

والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم.

إنى هنا لأنى أحببت هدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى أحببتها.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها وخيل إلىّ ساعتها أنى لن أستطيع أبدا أن أرخى عينى عنها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة.. إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتسمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة أحس بها تملأ قلبى.. وتعيش فيه.. إن نفس

هذه الإبتسامة لا تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة.. إنى أبتسم الآن يا سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى.

وهى أيضا، ربما أحبتنى منذ اليوم الأول.. فقد بدأ كل منا يقترب من الآخر فى خطى سريعة طبيعية، لا افتعال فيها ولا تعمد.. قوى أكبر منا تشد أحدنا للآخر.. إلى أن تنبهنا فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم.

نقاوم الحب.

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من حبها.. وخافت علىّ من حبى.. فقد كان كل منا يعلم مدى العذاب الذى ينتظر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التى يمكن أن يتحطم عليها حبنا فى آخر الطريق.

فأنا مسيحى.. مسيحى صريح.. اسمى لويس إسكندر منقريوس.

وهى، هدى عبدالفتاح.. مسلمة.

وأقسم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيرا.. أكثر مما يحتمل أى إنسان يحب.. قاومنا إلى حد أن قررنا أن يبتعد أحدنا عن الآخر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام، ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سعيدة.. ووصل الأمر إلى حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسابات.. وفى نفس اليوم طلبت هى أيضا نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم المشتريات.

واستمرت هذه القطيـعة ستة أشهر.. ستة أشـهر يا سيادة القـاضى والحـب فى قلبـينا.. فـى رأسـينا.. فى أعـيـننا.. فى أعــصــابنا.. وأنــا أذبل.. وهى تذبل.. نكــاد نموت يا ســيـــادة القاضى.

لا يا سيادة القاضى.. إنى لا أبالغ.. ولا أتكلم كـلاما عاطفيا منمقا.. أبدا.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسم الجريمة فى هذه القضية إذا أرادت النيابة أن تسميها جريمة.. ولم نكن نستطيع أن نعيش بعيدا عن واقعنا.. أعنى بعيدا عن عواطفنا.. عن حبنا.. فقررنا أن نستـسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.: إلى الهواء الذى نستمد منه حياتنا.

لا تنس يا سيادة القاضى أننا قاومنا.. وأننا قاومنا إلى هذا الحد.. لمـاذا قاومنا؟ لأننا كنا مـعتـرفين بالتـقاليـد التى تحكم مــجتـمــعنا.. لأننى لم نكن نريد أن نتـحـدى المجتـمع.. ولا أن نتـحـدى شريـعة كل منــا.. كنا نحـترم الشـرائع.. ونحـتـرم المجتـمع.. ونحترم أهلى وأهلهــا.. وكان يمكن أن نرتاح لو أننا استطعنا أن نستمر فى المقــاومة.. ولكننا لم نستطع.. لأن حبنا كان أقـوى من أهلى وأهلها.. وأقـوى من المجتـمع.. وهو ليس أقوى من الشـريعة.. ولكن الشـريعة.. كل الشرائع.. هى شرائع الحب.. الله هو الحب.. وقد كـان حبنا نظيفـا نقيا بحيث نفـخر بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين والمسيحيين.. مهما تعددت شرائعه.

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضى.

كان أمامنا طريقان.

إما أن نبقيه سرا، خوفا من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى خطيئة، لا نرضاها لحبنا.

وإمـا أن نعلنه للنـاس.. ونسيـر به فـي الطريق الذى رسم للحب منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج.

ولكى نتزوج، يجب أن يبدل أحدنا دينه.

إما أن أعلن إسلامى.

وأما أن تتنصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى.

واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتـكلم بصراحة أكثر.. وأنا واثق أن سعـة صدرك، وسـمو تفكيـرك ومشاعـرك، يمكن أن تفسح لى مجال الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معـتقدات أحد منا.. سواء أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسـيبقى كل منا محتفظا بحـقيقة مشاعره ومعتقداته.. المشـاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة صـــدره، والتى تنظم صلـتـه بالله، ولا يمـلكهـا أحـــد إلا هو، ولا يحاسبه عليها أحد إلا الله.

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر.

ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة.

فتـغييـر أحدنا دينه سـيسبب جـرحا لأهله، ولقـومه.. أمى وأمهـا.. وأبى وأبوهـا.. وإخوتى وإخـوتها.. أى فريق نعـرضه للصـدمة.. أى فـريق نضـحى بـه.. واحد منا يجب أن يضــحى بأهله وبقومه.. التضـحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم

للصدمة ، ثم هناك تضحية أخرى.. تضحية ذاتية.. فلا شك أن واحـدا منا سـيـضـحى بـجزء من مـعـتـقـداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التى تربينا عليهـا.. بالتقاليـد والبدع التى أصـبحت.. إلى حد مـا جزءا من حياتنا.. ولا شك أن حبنا يحتـمل هذه التضحية.. ولكن لا شك أيضا أن التضحية تؤثر فى الشخصية.. واحد منا سيتنازل عن قطعة من شخـصيته.. ستـهتز شخـصيته.. وقد يصـاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته.

فمن منا يقدم على هذه التضحية.

أنا.

أو هى.

وصـدقنى أننا ناقشنا هـذا الموضوع بصـراحة، وبسـاطة، وحلاوة.. كان حبنا ـ ولا يزال ـ يحتـمل مواجهة الواقع.. ليس فـقط الواقع المـادى.. بل الواقع النفـسى.. واقع أحـاسـيسنا النفـسـيـة.. لم يحـاول أحد مـنا أن ينافق الآخـر.. أو، يتظاهر بالاندفاع فى سبيل حبه أكثر من الآخر.

وكنت مستعدا أن أقبل التضحية.

وكانت هى أيضا مستعدة أن تقبل التضحية.

أنا مستعد أن أعلن إسلامى.

وهى مستعدة أن تعتنق المسيحية.

وضحكنا معا، وكل منا يحاول أن يعفى الآخر من التضحية ويحتملها عنه.

أتدرى يا سيادة القاضى.. لقد سبق أن قرأنا قصة لإحسان

عبدالقدوس، اسـمها «الله محبة» تدور حول مـشكلة كمشكلتنا، وقـد وصل البطل والبطلة فى القـصة إلـى حل غريب.. أجـريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجها من وجهـيها.. ثم قـذفا بها فى الهـواء.. والوجه الذى تسـقط عليه قطعة النقود يغير صاحبه دينه.

وربما كانت القـصة مـجرد خيـال انطلق فى رأس الكاتب.. ولكننا فكرنا فى أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن دين كـل منا لا يمكـن أن نعلقـه فى قـطعـة من ذات الخمسة القروش.. ولا يـمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتـنع به بعقولنا.. فـإننا إذا اقتنعنا احـتفظنا بسـلامة شـخـصـياتنا.. الإقـناع وحده هو الذى يـحفظ قـوة الشخصية.

وعدنا نفكر.

فكرنا كثيرا يا سيادة القاضى.. كثيرا جدا.

وانتهينا إلى الحل الذى تسميه النيابة جريمة.

لقد تزوجنا مرتين.

مرة كمسلمين.

ومرة كمسيحيين.

ذهبت وأعلنت إسلامى.. ثم تزوجتها أمام المأذون.

ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعـتنقت المسيحيـة، وتزوجتنى مرة ثانية فى الكنيسة.

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضى.

هل جريمة أن يحب أحدنا الآخر إلى هذا الحد.

لنفـرض أن اثنين من دين واحـد، خطر لهـمـا أن يتزوجـا مرتين تأكـيدا لحبـهما.. لـنفرض أن رجلا تزوج امـرأة.. وبعد خمس سنوات أو عشر خطر لهما أن يتـزوجا مرة ثانية تأكيدا لحبـهما.. مـجرد خـاطر حلو من الخواطر التي ترد في عـقول المحبـين.. إن أم كلثوم تقـول في أغنيـتها «لو كنـت أقدر أحب تاني أحبك أنت»، وهو تعـبير صـادق عن خواطر تطلقها فـعلا عقول المحبـين.. إن الزوج كثيرا ما يقول لزوجتـه التي يحبها : «لو كنت أقـــدر أتجـوز تاني أتجـــوزك إنتي برضـــه».. فـهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهمـا بطريقة خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة.

لا..

لا يمكن.

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلـى هذا المستوى يعتـبر جريمة.

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضي.

تزوجنا مرتين تأكيدا لحبنا.

مرة بعد أن غيرت ديني من أجل هدى.

مرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلي.

صحـيح أننا أخـفينا مـا فعلناه عن كل من حـولنا.. أخفـينا خطتنا عن المأذون والـقسـيس.. وتركنا الـبعض يـعتـقـد أني أسلمت وتزوجت زواجـا إسلاميـا.. والبعض الآخـر يعتـقد أن هدى تنصرت وتزوجت زواجا مسيحـيا.. ولكننا لم نخف شيئا لأننا اعتبـرناه جريمة.. ولكننا أخفيناه لأنه كـان إجراء يخصنا

وحـدنا.. هدى وأنا.. إجـراء يسـمـو بحـبنا، ويـحـفظ لكل منا شخصيته.

ولكن النيـابة تـقـول إننا زورنا فى أوراق رسـمـيـة.. إننا لم نزور فى أوراق رسـميـة يا سيـادة القاضى، ولكننا أكـدنا حبنا فى أوراق رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مـشروعـة يجنيـها المـزور.. فهل الزواج غـيـر مشـروع.. إنه مـشروع.. إنه مـشـروع فى الأوراق الرسـميـة المسـيـحيـة.. ومشروع فى الأوراق الرسـمية الإسلامـية.. فكيف تنطبق هنا جريمة التزوير.

وبعـد ذلك.. فإنى واثق يا سـيادة القـاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا على حـقيقة عواطفنـا ومعتقداتنا الدينيـة، فهذا شىء بيننا وبين الله.. وسواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين.. فنحن نحب الله.. ونؤمن به.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا كل هذا الحب الذى حدثتك عنه.

والأمر لك يا سيادة القاضى.

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب.

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنك عادل.

وسام للمتهم

ياسيادة القاضي.

ثق أني حائر.. والمحامي غالبا لا يحتار في موقفه.. فهو دائما يقف بجانب المتهم الذى قبل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من المتهمين الشبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أستطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إنى فى الواقع معجب بهم.. معجب بموقفهم، حتى لو كان هذا الموقف خلف قضبان القفص الحديدى.. وواجبى الذى أحس به ليس هو واجب الدفاع عنهم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسام يعلقه على صدره.. فهل من حقى أن أطالب لمجرم معترف بوسام.

النيابة طبعا، ستقول، لا.. وقد عصرت القانون عصرا حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين.

ولكنى واثق أن المحكمة لا يمكن أن توافق النيابة على

منطقها..بل إنى واثق أن السيـد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغيـر منطقه.. ولاحتار مثلى.. وبرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مستوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضـية بالذات.. هى حـيرة إنسانيـة.. والإنسانيـة تعلو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون.

ياسيادة القاضى.

البراءة لـيست هى موضـوع دفاعى.. أنا لا أطلـب البراءة.. فإنى لـست فى حاجة إلى طـلبها.. إنهـا ثابتة قـانونا.. ولكنى أطلب أربعـة أوسمة لأربـعة متـهمـين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليدا قضائيا جديدا بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع الجـريمة، وبرغم، اعتـراف المتهمين، فـإن المحكمة تثبت إعجـابهـا بهم، وتقديـرها لموقفـهم، وتوصـى الهـيئـات المختصة بمنح كل منهم وساما.

لا تبتسم يا سيادة القاضى.

أرجوك لا تبتسم.

إنى لا أبالغ.. ولا أفـتعل مدخـلا جديدا لدفـاعى.. إنى أتكلم بإحساسى كـمواطن عادى، يرى فى الجيل الجـديد الذى يمثله هؤلاء الشبان، روحـا جديدة، تثير الإعـجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه.

واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول «موضوع».. ولا أقول «جريمة».

من هم المتهمون ؟

إنهم محمـد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعـة من طلبة كلية الهندسـة.. أكـبرهم فى الثـانيـة والعـشرين، وأصـغـرهم فى

التاســعة عـشرة.. مـحمـد هو أول دفعتـه فى كلية الهـندسة.. وحسين حصل على تسعين فى المائة من مجموع الدرجات فى شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من الطلبة الممتازين.. الأربعة ياســيادة القاضى، حاجة تفرح.. ليس فى ماضى واحد منهم مايشــينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب زملائــهم، إلى حد أن قــامت ضجـة فى كلية الهندســة يوم بدأ التحقيق معهم.

وكان الأربعــة مجتمـعين فى بيت محـمد للمذاكـرة.. عندما دخل عليــهم عمــه.. عم محــمد.. وطلب أن يتطوع واحــد منهم، ويأخذ سيــارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيتــه فى مصر الجديدة ليعود بالسيدة حرمه.

وقرر الأربعة أن يذهبوا سويا.

فسحة..

وفى شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيــارة التى يركبها الأربعة، وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذى يمر فى الشارع فى هذا الوقت.. وقتلته.

قضاء وقدرا.

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة.

لا أحد رأى الحادث.

لا شهـود عليهم.. حتى عـسكرى الدورية لم يكن فى مكانه ليشهد عليهم.

لو أنهم هربوا لما كـانوا اليـوم واقفـين أمام عـدالتكم.. ولما استطاعت قوة فى الأرض أن تكتشفهم.

لكنهم لم يهربوا.

أرجـو أن تقدر هـذا ياسيـادة القـاضى.. إنهم لم يهـربوا.. ضمـائرهـم الحساسة النظيـفة القوية، لم تسـمح لهم بالهرب.. وبالعكس.

حـملوا جـثـة القتـيل داخل الـسيـارة، وذهبـوا إلى قـسم البوليس.. وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسـهم.

واعترفوا..

وهنا أيضا لم يكونوا فى حاجـة إلى الاعتراف أو على الأقل لم يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبـوا الخطأ إلى أنفسـهم.. كانوا يستطيعون أن يقولوا مثـلا إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات السيارة.. كانوا يستطيعـون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى منتصف الطريق.. وإنـهم استعملوا آلة التنبـيه.. وإنـهم استعملوا الفرامل..و..و..إلى آخر المبررات التى كـان يمكن أن تعفيهم من تهمة القتل الخطأ.

ولكن، لا.

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعـترفوا بأن الرجل كان يسير على الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته.

ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق.. إنها رجولة ياسيادة القاضى.

رجولة مبكرة، قوية، تعبر عن المعانى الجديدة التى يدين بها الجيل الحديد.

وإنى اعـتـرف لك الآن ياسيـادة القـاضى بأنى حـاولت أن أقنعـــهم بالعـدول عن هـذا الاعـتـراف، بدافع الحـــرص على مسـتقـبلهم.. حاولت كثـيرا.. بلا فـائدة.. إنه إصرار عـجيب.. إصـــرار على الصدق.. لا يريدون أن يـكذبوا حتى لو كـان فى الكذب سلامة.

ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث ؟.

هنا حدثت المفاجأة.

لا أحـد يدرى حـتى الآن من كان يـقود السـيـارة.. هل هو محمد.. أو أحمد.. أو علي.. أو حسين ؟!.

لقد سئلوا طبعا، عمن كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم :

– ماعرفش.

كلمة واحدة لم تتغير طوال التحقيق.. ماعرفش !

ولابد أن ضـابط البـوليس الذى بدأ التحـقيق قـد جن عندما واجهـوه بهذا الجـواب الحاسـم.. مـاعرفش.. ولابد أن السـيد وكيل النيابة قد بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير كلمة «ما اعرفش»..وينتزع السر الكبير من صدورهم.

وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق.

سئلوا مجتمعين فى مواجهة بعضهم البعض.. وسئلوا أفرادا.

ولا أريد أن أقول إن المحقق قد استعـمل معهم طرق التهديد الأدبى.. بل استعـمل معهم نوعا من أنواع التعـذيب الجسدى، عندما حـبس كلاً منهم حبسـا انفراديا.. وصمم على حبسـهم برغم أن القانون لا يبيح له حـق الحبس فى هذه الحالة.. ولكن لا أريد أن أثير هذه الـنقطة فى دفاعى.. لسـبب واحد.. وهو أن المتهمين لا يريدون إثارتها.

وفى مرحلـة من مراحل التحـقيق، خـيل للمحـقق أنه وجد الطريق لمعرفة السائق.. فطلب من الفنيين أن يلتقطوا البصامات من فوق عجلة القيادة.

أتدرى ماذا وجد خبير البصمات ياسيادة القاضى.

وجد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسلموا أنفسهم على أن

يمسحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب المجاور لمكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه .

إذا فموقف المتهمين موقف متعمد.

وهذا الصحيح.

إنى أتصورهم وقد اتفقوا بعد وقوع الحادث، على اتخاذ هذا الموقف، ورفعوا كلمة «ما أعرفش» كشعار لهم.. ثم اتجه بهم ذكاؤهم وهم قطعا أذكياء بدليل تفوقهم فى دراستهم.. إلى مسح البصمات من فوق عجلة القيادة.

وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى.

لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد منهم على ابن الآخر.

لا.

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر.

لا لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه.

ولكن لأن أحدا من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم أخفوه حتى عن أمهاتهم.

وأنا.

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدرى اليوم من كان منهم يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف العجيب وهذا الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن أعرف.. حاولت كثيرا.. ولم يكن معقولا أن يخفوا عنى السر لأنهم يثقون فىّ.. فأنا محاميهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا لى سرهم العجيب.. وقال لى محمد وأنا أناقشه :

– لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد

نسينا فعلا.. بذلنا مجهودا نفسيا كبيرا حتى ننسى.. وثق أننى لا أقاوم الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيته.

يا سيادة القاضى.

لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟

لأنهم يؤمنون بمبدأ : الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى سبيل الكل.. لأنهم مصرون على ألا يتخلوا عن واحد منهم.. وأن يتحملوا المسئولية معا.

إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية.

لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتيل فى الشارع وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبدا فى التهرب من المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معا.. أن يكون الكل فى سبيل الواحد. أن يضحى ثلاثة منهم فى سبيل واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق.. والشهامة.. والتضامن أمام الخطر.

ولكنهم بموقفهم هذا ـ دون أن يتعمدوا ـ خلقوا مشكلة قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا الواحد، حتى نحكم عليه.

وقد تخبطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمد هو الذى كان يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام لا يمكن أن يكون جديا.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهما بالقرابة».. ولا تكفى أبدا قرابة محمد لصاحب السيارة حتى نعتبره الفاعل الأصلى.. مستحيل.. هذا منطق لا يقره القانون

أو العــدالة.. أن أى واحــد من الأربعــة يمكن أن يكون هو قــائد السيارة لحظة وقــوع الحادث، خصوصــا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم يحمل رخصة قيادة.

ثم حاولــت النيابة أن تكيف التــهمــة تكييــفا آخــر.. حاولت أن تعــتبــر الأربعة فــاعلين أصليــين.. أى أن الأربعــة كانوا يقــودون السيــارة فى وقت واحد.. وهذا أيضا مــستحــيل.. هذا إسراف فى الخيال.. ولا أريد أن أقول إنه تعنت فى توجــيه الإتهام.. فلا يمكن أصلا وعملا أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد.

ولا أريد أن أرد على الكلام الكثــير الذى قاله ممثــل النيابة، عن جنون الشــباب واستــهتــارهم.. ومحاولتــه الربط بين هذا الحادث، وحادث الأتوبيــس الذى راح ضحيته عــدد من القتلى نتــيجــة إهمال الــسائق.. هذا كــلام، أعتــبــره كلامــا فى غيــر موضعه.. ولا يستحق أن يرد عليه.

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثا قد وقع راح ضحيته قتيل.

وأن هناك أربعة مــعترفيــن بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث.

فإنى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة.

ولكن البراءة لا تكفى.

هذا التضــامن الرائع بين الشبــان الأربعة.. هذه الشهــامة.. هذه الصلابة.. هذا الخلق النظيف القــوى.. هذه الروح الجديدة التى تنطلق من الجــيل الجديد.. ليس بينهم جبــان.. ليس بينهم من يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده.

كل هذا..

يستحق وساما.

غلطة حبيبى

ليس الذنب ذنبى ..

مؤكد أن ليس لى ذنب فى كل ما حدث .. لا يستطيع أحد أن يلومنى .. ولا مصطفى .

لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن أن احتمله فى سبيل هذا الحب .. أحببته وأنا مصممة على أن احتمل .. أن أضحى .. أن اجعل من حبه عالمى الذى أعيش فيه .. لا أريد شيئا من العالم الآخر .. لا أريد شيئا إلا أن أنام وأصحو وحبه فى صدرى .. هادئا .. مستقرا .. لذيذا .

وكنت أعلم أن أكثر ما يجب على أن احتمله هو عمل مصطفى .

صحيح أنى لم أكن أتصور أن يكون مشغولا بعمله إلى هذا الحد .. ولكنى استطعت بسرعة أن أعود نفسى على انشغاله عنى بعمله .. أن أبقى فى انتظاره أياما .. ثلاثة أيام .. أربعة .. أسبوعا .. نلتقى ساعة أو ساعتين وأحادثه فى التليفون

دقيقتــين ، وقد يحدثنى خلالهمــا وهو يقرأ أو وهو يكتب . فلا أتبرم .. ولا أضيق .. أبدا .. أبدا .. لـقد كنت سعيدة .. ســعيدة حقا .. سعــيدة بحبى له . وسعيدة بإحـساسى أنى احتمل فى سبيل شىء كبير .. فى سبــيل أن أمنح حبيبى النجاح .. وكان ينجح .. كان يخطو خطوات سريعة عمــلاقة .. كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل .

كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح .

أحس إنى أمنح حبيبى القوة ليخطو خطواته العملاقة ..

وكانت هذه هى سعادتى ..

سعــادتى العميــقة .. الحلوة .. الســعادة التى أستــمدها من نجاحه وتفوقه .

ولكن مصطفى لم يكن يصدق .

لم يكن يصدق أنى أستطيع أن احتمله كل هذا الاحتمال ، ثم أكون سعيدة .

وبدأت ألحظ شكوكــه كلــما الـتقــينا أو كلمــا تحـدثنا فى التليفون .

كان يسألنى فى التليفون :

– بتعملى إيه ؟

فأرد فى بساطة :

– باشتغل كانفاه .

وألحظ الشك والتهكم فى صوته وهو يقول لى :

– برضـه .. دى انتى بقــالك جمعة ، كل ما أســألك تقوليلى إنك بتشـتغلى كنافاه .

وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة ، وأنا أضـحك :

– تصور أنى خلصت نـص المفرش فى خمـسة أيام .. مش أنا بطلة والنبى .

ويضحك مصطفى فى تهكم ، يقول :

– فعلا بطلة ..

وفى مناسبة أخرى يسألنى :

– رحتى فين اليومين دول ؟

وأرد :

– أبدا .. قعدت فى البيت ..

وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة :

– يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ماخرجتيش ؟

وأرد وأنا أرفع إليه عينى كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى .

– وفيها إيه يا مصطفى .. أنت عارف أنى بأحب البيت .

ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه ، كأنه لا يصدقنى .

ثم ..

يتصل بى فى التليـفون ، فيجد تليـفونى مشغولا ، فـيعود يتصل بى ويصرخ فى وجهى :

– كنتى بتكلمى مين ؟

وأقول :

– كنت باكلم أختى ..

ويرد من تحت أسنانه :

– لا يا شيخة !!

وأرد وقلبى يرتجف :

– أمال حاكون باكلم مين يعنى !!

ويقول فى تهكم :

– مافيش .. مش ممكن فعلا أنك تكلمى حد إلا أختك !!

وشكوك مـصطفى تزداد يومـا بعـد يوم .. عـيناه تزدادان اضطرابا .. وكلماته تقطر بغل مكتوم .. إلى أن قال لى مرة :

– أنا سـاعات باكـره شغلـى علشان خـاطرك .. وساعـات باكرهك علشان خاطر شغلى .

قلت له يومها :

– أنا مـا اسـمحـش لك تكره شـغلك ، ولا تكرهنى .. لازم تحبنا احنا الاتنين .. واحنا الاتنين ممكن نسـتحمل بعض .. أنا أستحمل شغلك ، وشغلك يستحملنى .

وكنت أحـاول أن أريحه من شكـوكه .. أن أمـسح النظرات المضطربة عن عينيه .. أن اجعل أنفاسه تنتظم فى صدره .

ولكن كيف .. كيف يا ربى .. كيف أريح حبيبى من شكوكه.

إلى أن صرخ فى وجهى مرة :

– أنا مش ممكن أقدر أصدق أن بنت عـندها اثنين وعشرين سنة تفضل قاعدة فى البيت ، ولا تعملش حاجة إلا أنها تشتغل كنافاه .. الكلام ده كان أيام ستى .. مـافيش بنت اليومين دول بتعمل كده أبدا .. وبصراحة أنا مش مصدقك .. أنا مش مطمن.

وقالت والدموع تملأ عينى :

– وتصـدقنى إزاى يا مـصطفى .. أطمنك إزاى .. قـول لى أعمل إيه ؟

وقال فى حدة :

– أنا مش ممكن أطمـن عليكى إلا لما ألاقـيكى مـشـغـولة .. مشغولة فى حاجة عارفها .. حاجة جد .. مشغولة بشغل ، زى ما أنا مشغول بشغلى .

وقلت كأنى أتوسل إليه :

– ما أنا مشـغولة يا مصطفى .. مشـغولة فى البيت .. وفى الكنافاه .. وفى الراديو .. وفى التليفـزيون .. ده أنا عملت سبع مفـارش فى ست أشهـر .. وإذا كنت عايز مسـتعـدة أسمع لك أغانى الراديو كلها .

قال فى صراخ :

– مش كفاية .. مش مـهم أنك تشغلى أيديكى .. ولا تشغلى ودانك .. المهم أنك تشغلى عقلك .

قلت :

– عقلى مشغول بيك يا مصطفى ..

قال :

– مـا هو ده الخطر .. طول ما عـقلك مشـغول بى .. يبـقى بتـفكرى أنك تقـابلينى .. ولما مـا تقـابلينيش حـاتزهقى .. ولما تزهقى ممكن تغلطى .. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه .

وقلت فى استسلام :

– طيب عايزنى أعمل إيه يا مصطفى ؟

قال :

– عايزك تشتغلى ..

قلت :

– اشتغل إيه ؟

قال :

– أى حـاجة .. سـكرتيرة .. مـذيعـة فى الإذاعـة واللا فى التليفزيون .. أى حاجة .

قلت :

- زى مـا يعجـبك يا مـصطفى .. شغـلنى ما طرح مـا أنت عليّ.

ولم أكن أريد أن أعمل .

والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل .

كنت سعيدة فى البيت .

سعيدة بأشغال الكنافاه .

سعيدة بأغانى الإذاعة وبرامج التليفزيون .

سعيدة وأنا فى انتظار مصطفـى ليقابلنى مرة أو مرتين فى الأسبوع .

ولكن مصطفى صمم .

وأخذنى من يدى إلى التليـفزيون .. وقدمنى إلى المختـصين هناك .. وأجروا لى امتـحانا .. ونجحت .. أصبـحت مذيعة فى التليفزيون .. مقدمة برامج كما يسموننا .

وانقلبت حياتى كلها .

وانشغلت .

وكان أول ما انشغلت عنه هو مصطفى .. لم أعد أعيش معه بفكرى وعواطفى أربعـا وعشرين ساعة فى اليـوم .. أصبحت أعيش معـه فترات متقطعـة من يومى .. وأرقد فى فراشى كل مساء فلا أكاد أفكر فيـه حتى يغلبنى التعب وأنام .. وأصبحت أنسى فى زحـمة العـمل أن أتصل بمصطفى فـى التليفـون كل صباح .. وأنسى أن أقرأ له مقـالاته التى كنت أحفظها عن ظهر قلب.

أصبحت مشغولة .

مشغولة ..

ولم يشغلنى العمل نفسه .. ولكن شـغلنى أكثر جو العمل .. شغلت بزملائى الكثيرين الذين يـعملون معى فى التليفزيون .. وشغلت بخطابات المعـجبين والمعـجبات .. وشــغلت بالدسائس والمقالب التى تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير .

وبين زملائى كثيرون من الشبان المهذبين الناجحين .

ربما كان أكثرهم تهذيبا ونجاحا ، هو محمود .

وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود .

صداقة خالصة .

قلبى لا يزال مع مصطفى .

ولكنى أرى محمود كل يوم .. إنه إما فى مكتبى .. أو أنا فى مكتبه .

وهو فى حاجة دائما إلىّ .

إن أحلامه الكبيرة تكاد أحيانا تعصف به .. وتكاد تلقيه فى هاوية اليأس .. وهو فى حـاجة إلىّ حتى أقويه على أحــلامه .. حتى أسند شـخصيتـه المهزوزة .. حتى أمنحه القـدرة ليخطو خطوات عملاقة نحو أمله .

ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته :

ثم أصبح يوصلنى كل يوم .

بل أصـبح يمر علىّ كـل صبـاح ليأخـذنى مـعه إلى مـبنى التليفزيون .

كانت صداقة .

لا أكثر من الصداقة .

ولم يكن هناك شىء أخـفـيـه عن مـصطفى .. صــرحت له بصداقتى لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..

بصداقتى لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث .. وكنت أطلعه على مـشاكل محمـود فى العمل ، كمـا أطلعه على مشاكلى .

وكنت أعتقد أن مصطفى يفهم حقـيقة علاقتى بمحمود ، إلى أن قال لى مرة :

– شفتى محمود النهاردة ؟

وقلت فى بساطة :

– طبعا .

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه :

– وطبعا وصلك بعربيته .

قلت :

– أيوه .

وانفجر مرة واحدة صارخا :

– انتى بتشتغلى فى التليفزيون ، ولا بتشتغلى فى محمود .

قلت فى هدوء :

– يا مصطفى .. مـا تقولش كـده .. أنت عارف أن محـمود صديقى .. أنا ماخبتش عنك حاجة .

وصرخ :

ـ أنا مش مطمـئن للصداقـة دى .. مافـيش حاجـة اسمـها صداقة .. راكبه فى عربيته رايحة جاية ، وتقوليلى صداقة !

وقلت وأنا أكثر هدوءا :

– يعنى عايزنى أعمل إيه ؟

قال :

– عايزك تبطلى تعرفى اللى اسمه محمود ده .

– مش ممكن يا مصطفى .. ده زميلى .. يعنى أقوله إيه؟

قال :

– قولى له بصراحة إنك بتحبى واحد تانى .

قلت :

– هو عارف أنى باحب واحد تانى .. وعـمر الرجل ما طلب منى أكتر من صداقة ..

وعاد يصرخ :

– ماتجبليش سيرة الصداقــة .. إنتى فاكرة أنى مغفل .. أنا باشتــغل زيك .. وعارف الصداقــة معناها إيه .. اشــمعنى سـى محمود ده اللى مصاحباه .. ما فيه ألف واحد فى التليفزيون .

قلت :

– يا مصطفى خلى عقلك واسع .. يعنى أعمل إيه ؟

وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يختزنها فى صدره :

– سيبى الشغل .. ارجعى اقعدى فى البيت .

وترددت برهة .. كـدت أضعف كـما تعـودت أضعف أمــام مصطفى .. ولكن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها من العمل ، انتصرت على ضعفى ، وقلت له فى ثبات :

– ما أقدرش يا مصطفى .. مابقتش أقدر أقعد فى البيت .

وقال كأنه صدم :

– كده .. طيب اعملى اللى انتى عايزاه .. سعيدة !

وعشت يوما كاملا أراجع نفسى .

واكتشفت أنى فعلا لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت .

لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التليفزيون.

ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود .

ومصطفى يلومنى .

أبدا .. لا أستــحق لومه .. ليس لى ذنب .. لقــد كنت له بكل دقيقة من عمرى .. وكنت سأبقى له بكل دقائق عمرى .

ولكنه هو ..

هو الذى أخرجنى من البيت .

هو الذى أخذنى بيده إلى التليفزيون .

خاف على حــبى له من فراغ حــياتى .. فمــلأ حيــاتى حتى لم يعد فيها مكان لحبه !

العقل الكبير ..

أكثر ما يضايقني أن يتدخل الناس في حياتي الخاصة.. وأن يصدروا عليّ أحكاما، ليست من شأنهم.. لقد حكموا عليّ أني بائسة.. مسكينة.. غلبانة.. وتمصمص العجائز شفاههن ويهمسن.. يا ميلة بختها.. والنبي دي ضفرها بميت بنت.. ثم يتضاحكن قائلات.. آل بنت آل.

وأنا فعلا، بنت.

بنت في الخامسة والثلاثين من عمري.

وحتى أريح الناس، فإني أقول في وجوههم.. إني عانس.

أنا عانس.

ولكن.

من أدراهم أني مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختي مائل.

لماذا يفترض الناس دائما أن العانس لابد أن تكون بائسة.

لا..

لست بائسة.

أنا سعيدة.

سعيدة جدا.. أسعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتى أعرفهن، واللاتى فى مثل سنى.. وسعادتى نابعة من عقلى.

الشعـراء، وكتـاب القصص، يقـولون إن السعـادة تنبع من القلب.. لا.. هذا كذب.. خـيال.. السعادة تنبع من العـقل.. وكلما اسـتطاع العـقـل أن يسـيطر على القلب.. اســتطاع أن يحـقق لصاحبه سعادة أكبر.

وكنت ـ ولا أزال ـ أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لنفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى أرسم صورة محددة لحـياتى.. حياة سعيـدة.. لا أعرضـها لمجازفة، أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة.

الفرق بينى وبين بقية البـنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير لحظات سعيـدة.. إن سعادتى دائمة، مـستقرة ثابتة.. أمـا بقية البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء.

وأنا لا ينقصنى شىء لأتزوج.

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكـية.. غنية.. معاشـى من المرحوم بابا قدره خمسة وعشرون جنيها فى الشهر.

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطاب يقفون على بابى.. المهندس.. والدكـتور.. والضــابط.. بل تقدم لى مـرة أحد كـبار الصحفيين.

وكنت أرفضـهم.

أرفضـهم، لأنى منذ كنـت فى السادسة عشرة، وأنا مـقتنعة بأن الزواج فى حـد ذاته لا يحقق السعـادة.. وأن ليس المهم أن أكون زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة.

عقلى الكبير استطاع أن يجنبـنى الخطأ الكبير الذى تقع فيه البنات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة السـاذجة تملأ قلوبهن.. الفـرحـة بالثـوب الأبيض والطرحـة.. والفرحـة

بالدبلة الذهبية.. والفـرحة بالزيطة والهيصة.. ثم يكتـشفن بعد أيام أنهن زففن إلى الشـقاء.. ويعشن عمـرا شقيا.. لا ينفـعهن فيه لا الثوب الأبيض، ولا الطرحة.

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب.

إن لى قلبا.

قلبا كبيرا أيضـا.

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت حسين.

وقد التقيت بحسين، وأنا فى الثـانية والعشرين من عمرى.. ومنذ اللحظة الأولى أحـسست بتفـاهم كبير بـينى وبينه.. كان عـقلى يتـجـاوب مع كل مـا فى عـقله، وأخـلاقى تتـلاقى مع أخلاقه.. ومـزاجى مع مزاجه.. وأحبنى حسـين.. ربما أكثر مما أحببته.. كان يقضـى معى كل دقـيقة يستطيع أن يكون فيها مع أحد.

ولكن حـسـين كـان ضـابطا بحـارا عـلى إحـدى المراكب التجارية.. وكان يغـيب فى البحر كثيرا.. يغـيب شـهرا.. ويعود ليبقى معى خمسة عشر يوما على الأكثر.

وبرغم ذلك بقينا على حبنا.

وحبنا ينمو.

ولكنه كان حبا عفا نظيـفا.. واستطاع عقلى أن يسيطر على قلبى دائما ليبقى حبى عفا نظيفا.

ليس مـعنى هذا أنى لـم أكن أحس بأنى فى حـاجـة إلى أن أطلق حبى إلى مـدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عـديمة الإحـسـاس.. ليس مـعنى هذا أنى حنبليـة متـزمتـة.. أبدا.. كل مـا هنالك أنـى لم أكن أريد أن أعـود نفـسى عـلى تصـرفـات لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أتعود

عليـها.. دلنى عقـلى على أنى لو عودت جـسدى على حـسين.. لو أطلقت معه غـرائزى الطبيعية.. فإنى سـأتعذب، لأن حسين يغيب عنى كـثيـرا.. إنى لا أستطيع أن أكون له ليـلة، ثم يغيب عنى ستة أشـهر، حتى تعود مركبـه.. لا.. لا أستطيع.. إنى قد أجد نفسى فى هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة حاجتى الجسـدية، وقد لا أستطيع مقاومتهـا، فأنحرف وأخون حسين مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسى على شىء من هذا.

وقد تقدم حسين لخطبتى.

ولكنى رفضته.

هل هذا معقول ؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذى تحبه؟

معقول جدا، إذا اكتشفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن يحقق لها حياة زوجية مسـتقرة سعيدة.. وإذا كان فى زواجها به ما يعرض حبها للتلف، والضياع والنكبات.

وقلت كل ذلك لحسين.

قلت له إنى لا أستطيـع أن أتزوجه لأن عمله يحـتم عليه أن يغيب عنى طويلا.. شـهورا بأكملهـا.. فلن نستطيع أن نقيم بيتا سعيدا.. بل قلت له إنى لو تـزوجته، وتعودت على أن يكون لى رجل، فلن أضمن أن أصـون نفسى من الانحـراف، وهو يغيب عنى مددا تصل إلى عشرة أشـهر فى العام، ولا يمنحنى سوى شـهـرين توزع أيامهـما على مـدار السنة.. وفى الوقت نفـسه فإنى لا أستـطيع أن أطلب منه أن يستقيل من عـمله، ويضـحى بمستقبله، حتى يقيم معى البيت السعيد.

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية.

واقتنـع حسين.

وقرر أن يبحث عـن عمل له فى شركة القناة.. فـإن ضباط

البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالى البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع.

ولكن حسين لم يوفق فى الالتحاق بشركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا على ممارسة الحب، والتمتع به.. وإمكانياتنا لا تتعدى هذا الحب الرائع الأفلاطونى.. حب أقرب إلى الصداقة الحلوة الجميلة.

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج به.

ثم سافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما يقرب من عام.

وعاد ليعرض على الزواج مرة ثانية.

وصمم فى هذه المرة.

إنه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد يفرح بهم.

لا تكن ساذجا يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك سعداء.. وأنت لا تستطيع أن تكون سعيدا إلا فى الحدود التى رسمتها لك.. لا يمكن أن تكون سعيدا فى بيت تخشى فيه زوجتك على نفسها من الفتنة والإنحراف.. ولا أن تكون سعيدا بأولاد يعيشون كل حياتهم بلا أب.. كأنهم يتامى.

ولكن حسين صمم.

وأنا أشفق عليه من تصميمه، وعقلى الكبير يرفض أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج.

تزوج فتاة أخرى.

إنى واثقـة من أننى أسـعـد من هذه الفـتـاة الأخـرى التى تزوجـها.. إنى على الأقل لا أقـضـى عـشرة أشـهر فى العـام، بإحساس الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى الاسكندرية.

وانتهت قصتى مع حسين.

وكنت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراسـتى فالتحقت بكليـة الآداب قسم اللغـة الانجليزية.. وقـد منحتنـى الجامـعة مزيدا من السعـادة.. إنى سعيدة.. سعيـدة.. وقد تقدم إلى وأنا فى الجامعة ثلاثة من زملائى ليـخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن أتنازل عن إكمال دراسـتى.. وفى الوقت نفسه لا أومن بأنى أستطيع أن أكـون سعيـدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسم نفسـى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الربكة؟ إمـا أن أكون زوجة وأما.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة.

وفضلت أن أكون طالبة.

عقلى الكبـير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكـون طالبة.. ورسم لى عالما محـددا أستطيع أن أكون فيـه سعيدة.. وكنت سـعيدة فعلا.

وتخرجت.

واشتـغلت فى إحدى السـفارات.. بمرتب خمـسة وعـشرين جنيهـا، إذا أضيفت إلى معاش أبـى فقد أصبح دخلى خـمسين جنيها.

إنى غنية.

إن الإحساس بالغنى سعادة أخرى.

سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال.

ثم التقيت ببهجت.

كان بهجت هو حبى الثانى.. وكان يختلف اختلافا كبيرا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج من الجامعة واشتغل محاسبا، إلا أنه كان يبدو فى حـاجة إلىّ فى كل كبيرة وصغيـرة.. أصبحت أنا التى أنتقى له ثيابه وربطة عنقـه.. وأنا التى أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التى أنتـقى له الكتب التى يقرؤها.. بل أنا التى علمته كيف يبدو إنسانا محترما كاملا.. مهذبا.

وأحبنى بهجت فى وله.. كان عنيفـا مندفعا فى حبه.. ولكن عقلى الكـبير اسـتطاع أن يسيطر عليـه كما يسـيطر علىّ.. فلم أندفع معـه إلى أكثر من الحدود التـى رسمتهـا لنفسى، والتى أصون بها نفـسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيـعية.. دون أن أتأكد من مصيرى.

وطلبنى بهجت للزواج.

وكان يمكن أن أتزوجه.

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقـيم مع أمه ولا يسـتطيع أن يتركـها.. وهو فى الوقت نفسه مقتنع بأنى لـن أطيق أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها شرسة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعـيدا عنها، فهـو سيبقى مسـئولا عنها ماديا.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه..

مشكلة لا حل لها.

ماذا أفعل.

هل أجازف وأقنع بهـجت، بأن نقيم مع أمـه.. ثم أحاول أن أتحملها.. أو أحاول أن أخفف من شـراستها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعـالمى السعيد، لأقـتحم عالما لست واثقة من سـعادتى فيه؟!

عقلى الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.

ورفضت أن أتزوج بهـجت.. واستطعت أن أقنعـه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا.. حب أقرب إلى الصداقة الرائعة الحارة.. وسر قوتى هو أنى لم أقبل أبدا أن أنقاد إلى الحب إلى أبعد من هذه الحدود.

لو أنى اندفعت مع بهـجت.. لو أنى تماديت معه بحيث أفقد سيـطرة عقلى على قلبى وعلى جـسدى.. فـربما قبلـت زواجه، وعشت فى جحيم أمه.. يا حفيظ.

وأنا الآن فى الخامسة والثلاثين من عمرى.

عانس.

ولكنى سعيدة.

سـعيـدة أكثـر من سـعادة ثمـانين فى المائة من الزوجـات اللاتى فى مثل سنى.

وسعادتى تنبع من عقلى، لا من قلبى، ولا من جسدى.

أتدرى ما يقوله الناس؟

إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى.

أبدا والله العظيم.

لا تصدقهم.

إنه معـاش كبـير.. خـمسة وعـشرون جنيـها فى الشـهر.. ثلثمائة جنيه فى العام.. إيراد خمسة عشر فدانا.

ولكن لا تصدق الناس.

أرجوك.

إنى سعيدة.

وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلى الكبير.

أزمــة المثقفــين..

عطيات.. عزيزتي.

وكـان يجب أن أناديك : «زوجـتي العـزيزة»..

ولكن، لا.. سواء كنت زوجتي أم لم تكوني.. فأنت دائما : عزيزتي، أنت دائما، عطيات العزيزة.

لقد كذبت عليك يا عزيزتي.

أنا لم أسافـر إلى الأسكندرية لأتم بحثي عن البيروقـراطية كمـا قلت لك.. أبداً، البحث قد تم وستفاجئين به منشورا في الجريدة غدا.

لم أسافر إلى الأسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب.

منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟

منذ سنتين.

ربما قبل أن ينقضي شهر العسل.. عسلنا!

وكنت طول هذه المدة أتردد في الكتـابة إليك، لأني كنت في كل يوم أكتشف في نفسي شيئا جديدا أريد أن أطلعك عليه.. ثم لأني لم أكن قد وجدت القرار الذي يجب أن أنتهي إليه بعد أن أطلعك على نفسي.. فلم يكن الأمر سهلاً.. أبدا ليس سهلا

أن أحاول اكـتشـاف أغوار نفـسى، وأن أكتـشف الروابط بين عقلى البـاطن وعقلى الصـاحى، ثم أكتشف الخـيط الذى يربط بين ثقافتى وبيئـتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد مصيرى ومصيرك.

وقد انتهيت إلى القرار.

أمس فقط انتهيت إليه .

أرجوك.. لا تجـرى فوق السطور بسـرعة حـتى تصلى إلى معرفة هذا القرار.. أرجـوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئى كل سطر من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى.. وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى.

القرار هو : أنت طالق.

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

أرجـوك يا عطيـات.. فلم يكن بـيننا أبدا صـراخ، ولا بكاء، ولا غـضب.. لقد اخـتلفنا كثـيـرا من قبل، وتعـودنا أن نناقش خلافـاتنا بالمنطق.. بالعـقل وحده.. وكـانت ثقافـتى وثقافـتك تحمينا دائما مـن العواصف النفسية التى يتعـرض لها السوقة الذين لا تعينهم ثقـافتهم على الوصـول إلى أغوار النفس.. إلى البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها.

إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى.

فإن أى قـرار مهـما بلغت قسـوته، يخفف منه الـفهم.. وأنا أريدك أن تفـهمـينى، كـما فـهـمت نفسى، حـتى لا تتـهمـينى بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفـسك للإحساس بالظلم.. وميلة البخت.

والآن.

الأسباب.

أسباب القرار الذى انتهيت إليه.

إن من حقـك أن تعرفى هذه الأسـباب بتفـاصيلهـا.. ولكى أطمئنك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسـبابا متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجـات.. أنت عصارة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسـبـاب كلها مـتـعلقـة بى أنا.. أنا الذى كنت أخـوض المعـركة وحـدى.. وكان يجب أن أكـون أنا الذى أتخذ القـرار.. وحدى أيضا.

وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حـتى لا تحتارى فى فهمى.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تفكرى فى ترتيـبها، ترتيـبا مسلسـلا بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق.

لقد تركت قـريتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامـعة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحيـاة القاهرة بالنسـبة لى.. نقلة لم يسـبقـها إعـداد نفسـى، ولا إعـداد عـقلى.. وبهـرت.. وبقيت ثـلاث سنوات مبـهـورا.. والبـهرة تشل كل إنطلاق يمـكن أن يندفع فيـه شاب فى مـثل عمرى.. كانت بنات الجامـعة والنساء اللاتى أراهن فى شوارع القاهرة، مـخلوقات غريبـة بالنسبـة لى.. غريبة بالنسـبة لأمى التى لا تخرج من بيـتها، إلا وهى مـختفـية فى زعبـوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسـبة لأختى التى حجزت بجانب أمها منذ كـانت فـى السـابعـة، ولم تخـرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقـصد، دار زوجها.. وغـريبة بالنسبة لزينة.. الفـتاة التى ذبحها شقيقها لأنها أطلت على ابن عمها مكشوفة الوجه.

ولكن هذه النهرة.. وهذه الغربة.. بدأت تخف شيئا فشيئا.. ومنذ أصبحت في السنة الثالثة بكلية الآداب، بدأت أختلط بالبنات،.وبدأت أجهد نفسي في أن أبحث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسرب إلى منطقي.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقد احترامي لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدي بنطلونا يبرز كل قطعة من جسدها، ودون أن أفقد اقتناعي بها.

والواقع أن سرعة اقتناعي بتصرفات البنات، كانت تصحبها سرعة في تحرري من إحساسي بالمسئولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسي الفردي قد بدأ يطغى على إحساسي بالمجتمع.. وإحساسي بمسئوليتي عن نفسي بدأ يسبق مسئوليتي عن الناس وبنات الناس.. بدأت أقبل البنات كما هن، ما دام هذا لن يتسبب لي في خسارة.. وما دمت لست مسئولا عن واحدة منهن.

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذي تغير في هذه الفترة ليس اقتناعي، ولكنه إحساسي.. بنتيجة تغير المجتمع الذي أعيش فيه.. ففي قريتنا كان إحساسي يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص في القاهرة، إلى أن أصبح إحساسا فرديا.

وقد كان لي في نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التي أعقبتها، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذي عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلا.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضا بإحساس اللامسئول.. اللامبالي.. وكان هذا الاحساس يترك على ذهني غلال رقيقة،

أبدو بها كـأنى مقتنع بهذا النوع عن العـلاقات، وهذ النوع من البنات.. ولكنه لم يكـن أبدا ـ كمـا اكتـشفـت أخيـرا ـ اقتناعـا أصيلا.

ثم.

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراة.

وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحيـة، المنحلة، المتهـتكة.. ولم تستـطع قراءاتى الكثـيرة عن عظمة الأدباء الفرنسيين أن تخـفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيل إلىّ دائمـا أن هؤلاء العظماء ليسوا واقـعا.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السـماء.. أمـا باريس فهى مـدينة منحلة، بلا عظمـاء، وبلا مبادئ.

ولكن عندمـا عشت فى باريس بهرت بثـقافـتها.. إن ثقـافة باريس، وجديتها، وكفاحهـا فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تـاريخـا.. إنه واقـع باريس.. إن الثـقـافـة على الأرصفة.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العـاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقـافى هو الذى فرض مظاهر الإنحـلال على باريس.. فـلا يمكن بعـد هذا أن يسـمى انحـلالا.. أبدا.. هذا الذى يسمـيـه الناس انحلالا، ليس سـوى انتـصـار العـقل.. انتـصـار الثـقافـة.. إنه التـقدم الذى يصنعـه الإنسـان.

واقتنعت بباريس.

بكل ما فى باريس.

وانتهـيت من الدكتوراة فى خـلال عامين.. نلتهـا مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراة أخرى.

وتزوجت كما تعلمين.

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز.

ولم تكن فرنسواز عذراء.. عرفت أنـها ليست عذراء من قبل أن أتزوجهـا، وبرغم ذلك تزوجتهـا.. لم أفكر لحظة واحدة فى أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعـتنى كثيرا فوق هذه التوافه.. عـذراء.. ماذا يعنى أن تـكون الفتـاة عـذراء أو ليست عـذراء.. لا شىء.. لا شىء بالمرة.. ولـم يكن هذا الموضـوع قط مـثـار نقاش بينى وين فرنسواز.. ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقـصت حتـة، لأنها ليست عـذراء.. أبدا.. أبدا.. ليس هناك ما أعـانيه لا فى عقلى ولا فى إحـساسى.. وكل ما عرفـته عن فرانسواز أنها كانت تحب شـابا قبل أن تلتقى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبـه.. وحتى هذا لم يثـر فىّ أدنى تردد فى الزواج بها.. لماذا.. إن من حقـها أن تحب.. لم يكن معقـولا، ولا منطقيا أن تبـقى حـتى تلتقـى بى وهى فى السـابعة والعـشـرين من عمرها، دون أن تحب.. دون أن يكون فى حياتها رجل.

وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى.

إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتك عنها.

ثم.

ماتت فرنسواز.. فى حادثة.

ولم أناقش مـوتهـا.. فمناقـشـة الموت جدل سـفـسطائى.. والحزن على الموت حزن عقيم.. سـخيف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة.. لا العواطـف المثقفة.. ولكنى ناقشـت وحدتى بعدها.. وتعذبت بوحـدتى.. وحزنت لوحـدتى.. ليست وحدة جـسدى، ولكن وحـدة عقلى، ووحـدة روحى ومـزاجى وثقافـتى.. فقـد كانت زميلة روحى، وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى.

وعدت بعدها إلى القاهرة.

عدت ومعى باريس.

باريس فى عقلى، وفى قلبى.

وقررت أن أشـتغل فى الصحـافة حتى أفيـد بثقافـتى عددا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مـصـر.. حتى أنتـشلهم من أحـاسـيسـهم الجـاهلة، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم، ويحبس أحـاسيسـهم، ويحرمهم مـن متعـة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار الباليـة التى أقاموها حولهم، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها.

إلى أن قابلتك.

وكانـت ثقافـتك أرقى بكثيـر من الشهـادة الجامـعيـة التى تحملينها.

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقـرأه معا.. لقد قررنا أن نعيد قراءة كل أعـمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقـييمه لها.. ولا أزال أذكر التعليقـات التى كنت تتركينها على هوامش الكتب التى أقـرؤها بعـدك.. كانـت تعليقـاتك كـأنهـا تسجـيل لآرائى.. كأنك تتلمذت على يدى.. لقد ارتبطت بك ثقافيا قبل أن أرتبط بك عاطفيا أو جسديا.

ولم يكن لجـسدينا دور فــى هذه الفتـرة.. لا أدرى، هل عن تعمـد منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتـيح لنا التعبـير عن حاجة جسدينا.

المهم.

لقد عرضت عليك الزواج، ولم أكن قـد قبلتك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شفتيك.

وترددت أنت قليـلا ، ومرت سحـابة قاتمة على عـينيك، ثم قلت :

– دعنى أفكر؟

ودهشت.. فيم تريدين التفكير.. إذا كنا قد ارتبطنا ثقافيا إلى

هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافى إلى ارتباط عاطفى.. فماذا بقى لتفكرى فيه.

وقلت لك فى دهشة :

– تفكرين فى ماذا ؟

ونظرت إلى طويلا.. نظرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصـوتك ينضح بالعذاب :

– أريد أن أقول لك شيئا.

قلت والدهشة تستبد بى :

– ماذا ؟

قلت وأنت تحنين رأسك :

– إنى لست عذراء.

وأذكر ساعتها أنى ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت :

– وماذا يعنى هذا؟

قلت :

– ألا يعنى هذا شيئا؟

قلت وآثار ضحكتى بين شفتى :

– لا.. لا يعنى شيئا.

ولكنى عندما أجـبتك، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتـوقعه. كأنى تـذكرت فجـأة أنى فى مصـر، ولست فى باريس.. نعم.. طوال هذه الشـهور التى مضت مـنذ عدت من باريس.. أكثر من عام.. لم أتنبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس.. لم أتنبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فـرانسواز لم تصـرح لى بأنهـا ليست عـذراء ـ لم تكن تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلىّ.

إن فرنسواز.. باريس.

وأنت.. القاهرة.

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدها الذى اعتـدى عليك وأنت فى الثانيـة عشرة من عـمرك.. وكيف أن أحدا لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وأنا.

ولم أكن أريد أن أســمع قــصــتك.. ولـم يكن يهــمنى أن أسمـعها.. ســواء كان الرجل قـد أعتدى عليـك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا.

وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعى :

- كنت أســتطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أســتطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئـا بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيـقة ما دمت تريد أن تتزوجنى.

وأجبتك :

- إنك تتكلمين كـالجاهلات.. كأنك فتاة قـروية.. ماذا يعنى كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئا أبدا.. إنى أريدك كما أنت.. بتجـاربك.. إن هذه التجـارب هى التى كونت الشــخصـية التى أحـبهـا.. ثم إنك تنسين أنــى إنسان مـثقف.. وأنى عـشت فى باريس.

وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة.

ثم وافقت على الزواج.

ولكنك بعـد أن تركـتنى.. وجـدت نفـسى يومهـا أتعـرض لتيـارات ذهنية كأنها تهب على من عـالم سحيق.. بعيـد.. عالم ظننت أنى تحـررت مـنه.. هربت منه على أجنـحـة ثقـافـتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلمـيــذا يتلقى المبـادىء الأولى للفكـر المتـحـرر.. قلت

لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفا من الفتاة العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة واحدة من الجسد، ثم نترك باقى الجسد حرا يفعل ما يشاء، دون أن يفقد شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف الضمير.. وشرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليست زجاجة مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها : «لا تفتح إلا بمعرفة الزوج».. قلت لنفسى كلاما كثيرا.

وكان عقلى مقتنعا طبعا بهذا الكلام.

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى.

وأصارحك اليوم بأنى تزوجتك كنوع من التحدى لهذا القلق.. تحدى نفسى.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هذا المجهول الذى يعيش داخلى ويقلقنى.

وكنت واثقا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية.

ولكنى منذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن ألتقى جسدانا لأول مرة، مباشرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلا كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت نفسى ساعتها أتمنى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو الفرق الحسى أو العاطفى الذى يمكن أن أشعر به لو أنك كنت عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن أشك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت على.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتك أو كذبتك.. كان كل ما يهمنى أن هناك رجلا آخر أخذك قبلى.. وأخذك بلا زواج.. وكنت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعا كريها، ثم أشعر بكراهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية تدفعنى

إلى التفكيـر فى ارتكاب جريمة.. أريـد أن أقتله.. نعم.. أريد أن أقـتل.. تماما كـأى فـلاح من قريتنا يكتـشف ليلة الزفـاف أن زوجتـه ليست عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحـمل فى عقلى وفى ضـمـيرى كل هذه الـثقـافـة.. الكنوز الهـائلة التى تحـوى كل مستقبل الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قريتنا.

ولكن فرنسواز أيضا لم تكن عذراء.

وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرنسواز.

وحاولت أن أقنع نفسى بأنى مازلت فى باريس.

ولكن، لا.

مستحيل.

أنت عطيات.. ليست فرنسواز.

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس.

ولكن ما هو الفرق ؟

لماذا أمنح فرنسواز حقوقـا، لا أستطيع أن أمنحها لك بنفس البسـاطة؟

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس؟

فكرى معى.

لماذا ؟

ربما لأن جذورى تمتد فى مصر إلـى بعيد.. إلى جد جدى.. إلى آخر أجدادى.. وليس لى جذور فى باريس.

وربما لأن المجتـمع الذى كان يحيط بى فـى باريس يختلف عن المجـتمع الذى يـحيط بى فى القـاهرة.. إنى لا أسـتطيع أن أرى الجلاليب فى الشـارع، وباعة الترمس، ثم أتصـور نفسى فى باريس.. وقـد كنت فى باريس أساير مـجتمـعهـا حتى فى تقاليـده.. وأستـسلم له.. ولكنى ـ وأنا فى القاهرة ـ لـو فعلت ما كنت أفعل فـى باريس ، وآمنت بمـا أمنت فى باريس، فإنى

لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه.

وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر.

وربما لأن فرنسواز عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة.

وربما.. وربما.. عشرات «وربما».

والمعركة تشتد فى داخلى.

وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس.

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدرى مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقيها فى أحد أفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز ، دون أن أحس بأن أحدا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصب كل لذعة قلمى على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدا جنسيا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت علىّ منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء.

والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

ويوما بعد يوم أفقد ثقتى فى نفسى. وفى ثقافتى.

وبدأت أشعـر بأنى منافق كبـير.. وأنى أضـحك على الناس بهذه الشـهادات التى أحـملها.. بأنى لست مثـقفـا.. عقلى ليس مثقفا، وقلبى ليس مـثقفا، وإحساسى ليس مثقـفا.. الثقافة فى ذاكرتـى فقط. كأنـى مقرئ من مـقرئى الـقبور، أحـفظ آيات القـرآن وأتلوهـا مـائة مـرة فى اليـوم، ولكنـى لا أعـمل بهـا، ولا أحس بها.

وقـد لاحظت أنت شرودى الدائـم.. ولاحظت القلق المرتسم دائمـا فى عـينى.. وحـاولت جـهـدك أن تخـفـى عنى، ولكنك لم تسـتطيعى لأنك لم تكـونى تدرين سبب هذا الشـرود وهذا القلق.. وربما لاحظت أيضـا أنى بدأت أتردد كثيـرا على قريتنا فى الصـعـيـد .. كنت أذهب إلى هناك وأجلـس بجـانب أمى، وأستريح.. أستريح من ثقافتى.. وأشعر أنى فى مكانى.

أتدرين.

لقد اكتـشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملهـا، ليست سوى كتاب أضعه فى جيبى، وأخـرجه كلما أردت أن أستعين به فى كتابة مقال الجريدة.. كـل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقى، ولا فى نفسى.. إنها شىء اشتريته.. ووضعته فى جيبى.

وهزمت أمام نفسى.

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى.

أن أطلقك.

فأنت لست فرنسواز.

أنت عطيات.

فرنسواز كان من حقها ألا تكون عذراء.

أما أنت.. فلا.

حبيبى أصغر منى..

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات.

إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد طلقنى ثلاث مرات.

طلقنى.. لا.. أنا التى كنت أطلب الطلاق فى كل مرة.

وكنت أحبه.. ولكن حبى كان يصطدم بكرامتى.. وكرامتى كان يجرحها إصراره على أن يقضى ليلتين من كل أسبوع مع أصدقائه.. وأصدقاؤه كلهم عزاب.. هذا الصنف المستهتر من الشبان.. وأكثر من مرة ضبطت أثرا من آثار لهوه مع أصدقائه.. آثار أحمر شفاه فى منديله.. آثار بودرة فوق قميصه.. ودائما أضبط هذه الآثار فى صباح الليلتين اللتين يقضيهما مع أصدقائه.

وحاولت أن أبعده عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن أقنعه بألا يسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيرا بأن يكون لى الحق فى أن أسهر وحدى خارج البيت فى الليلة التى

يسهر فيها.. لم لا.. إنى أومن بالمساواة.. أنا موظفة مثله.. وأكسب مثله.. فلماذا لا يكون لى نفس الحقوق التى يمنحها لنفسه.. ولكنه كان يرفض.. ويصر على أن أبقى فى البيت وحدى.

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخوننى.. أن ألهو مثل لهوه.. ولكنى لم أفعل أبدا.. كنت أشعر بالتقزز كلما تصورت نفسى لرجلين فى وقت واحد.. جسدى يقشعر لمجرد أن أتخيل رجلا آخر يلمسنى غير زوجى.

لم أخنه.. ولكنى طالبته بالطلاق صونا لكرامتى.

وطلقنى.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن يكون لى رجل آخر.. أبدا، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذى يحيط بكل شابة مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسى فى كل يوم من الشهور الستة، كأنى مازلت زوجته.. برغم الحرمان الشديد الذى كنت أعانيه.

ثم أعادنى إليه.

ووعدنى أن يغير من نفسه.

وعدت إليه.. ملهوفة إليه.

ولكنه لم يف بوعده.

عاد كما كان.

وقاومت الصراع الذى اشتعل من جديد بين كرامتى وحبى.. قاومت طويلا.. إلى أن غلبتنى كرامتى.. فطلبت الطلاق مرة ثانية.. وطلقنى.

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضا أن يكون لى خلالها رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسى أنى

لا أزال زوجته.. وتحملت الحرمان القاسي.. وكنت أضحك على نفسي عندما تشتد بي قسوة الحرمان، وأتخيل أن زوجي مسافر.. وأنه سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود.

وقد عاد.

أعادني إليه.. وأسرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم يكن الحب وحده هو الذي أعادني.. ولكنه الحرمان.. الحرمان الطويل المر.

ووعد.

ولكنه أيضا لم يف بوعده.

وقد فكرت في هذه المرة أن أخونه، حتى أتخلص من الصراع بين حبي وكرامتي.. ولكني اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدني الاثنين.. الحب، والكرامة.. وخير لي أن أحتفظ بأحدهما.. واخترت أن أحتفظ بكرامتي.. وطلبت الطلاق.

وطلقني للمرة الثالثة.

هذه المرة أصبح الأمر مختلفا.. فإني لن أستطيع أن أعود إليه إلا بمحلل.. رجل آخر يتزوجني قبل أن أعود إليه.

فهل أستطيع أن أتزوج رجلا آخر.. لا.. لا أستطيع إذا كان الزواج لمجرد أن أعود لزوجي الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا «المحلل» رجلا صوريا.. مجرد إجراء رسمي على الورق.. أحس أني سأظل موصومة بهذه الورقة الرسمية إلى الأبد.. إذا لم تترك أثرا على جسدي، فإنها ستترك أثرا على إحساسي.. على كرامتي.

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشهور.. شهور الحرمان.. بدأت كرامتي تلين.. وبدأت أتصور أني أستطيع أن أقبل على نفسي إجراء «المحلل».

ولكن زوجي لم يعد إلى.

سافر.

سافر إلى بعيد.

وبدأ الأمل يذوب.. وبدأت أحس أني أنتقل إلى عالم آخر.. عالم ليس فيه الرجل الذى كان زوجا لى.. وليس فيه أصدقاؤه.. وليس فيه أهله.. وليس فيه بيجامته المخططة.. ولا فمه المفتوح الذى يتثاءب به كل صباح.

وقد انتقلت فعلا إلى عالم جديد.. مجتمع جديد يضم زميلاتى وزملائى فى العمل.. وأصدقاء جدد.. وجوه جديدة.. وعادات جديدة.. وأصبحت أخرج فى رحلات.. وأسهر سهرات بريئة.. سهرات ثقافية.

ولكنى بقيت دائما السيدة الفاضلة.

لم أخطىء أبدا.

ولم أفكر فى الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح.

كان صلاح إنسانا رقيقا.. مهذبا.. فنانا.. مثقفا.. وقد شعرت به منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن يحيطون بى.

واحترت فى بادىء الأمر فى تفسير شعورى نحوه.. فهو مختلف عن زوجى الأول .. مختلف عنه فى كل شىء.. زوجى الأول لم يكن رقيقا، ولا مهذبا، ولا فنانا.. كان عنيفا، ماديا، يسيطر على جسدى أكثر مما يسيطر على روحى.. وكنت أحبه.. فكيف أحب رجلا آخر مختلفا عنه.

وبددت الأيام حيرتى.

إنى أحبه.

أحب صلاح.

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب.

إن صلاح أصغر مني بأربع سنوات.. ولا يمكن أن أتزوج رجلا يصغرني بهذا الفارق الكبير.

وصلاح يريد أن يتزوجني.

لا.

لن أتزوجه.

لو تزوجته فسأصدم في زواجي الثاني أكثر مما صدمت في زواجي الأول.. لقد كانت مصيبتي في زواجي الأول أن زوجي كان يكبرني بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرني بأربع سنوات.. إني واثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد اليوم الأول من الزواج.. إنه يقول الآن إن فارق السن لن يكون له أثر.. ولكن هذا كلام يقوله قبل الزواج.. وكل الرجال يقولون قبل الزواج ما لا يقولونه بعد الزواج.

لا لن أتزوج.

إذن ماذا أفعل.

هل أكون له بلا زواج؟

مستحيل.

لقد مضى على علاقتي به أكثر من ستة أشهر دون أن أمنحه نفسي.. ولم يكن هذا سهلا عليّ.. أبدا لم يكن سهلا.. إني أعاني من كل دقيقة في عمري.. في كل دقيقة أريده.. كله.. وفي كل دقيقة أقاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابي لأحتمل الحرمان.. الحرمان القاسي.. حرمان تشتد قسوته كلما نظرت في عينيه المتلهفتين إليّ.. وكلما لمحت شفتيه الظامئتين إلى شفتي.. وكلما لمست يده الساخنة يدي المرتعشة.. وكلما احتكت كتفه المزدحمة بقوته بكتفي المحرومة.

وبرغم ذلك.

قاومت.

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصلاح بلا زواج، فسيكون سهلا علىّ بعد ذلك أن أكون لأى رجل بعد أن يتركنى صلاح.

خير لى أن أتعود على حرمان جسدى، من أن أتعود على ابتذال جسدى.

لا يا صلاح.. لنبق أصدقاء.

واضطر صلاح أن يكتفى بصداقتى.

كنا نخرج سويا كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور أصدقاءنا.. ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتبا.. ونشترك فى الرحلات الجماعية.

وما زلنا مجرد أصدقاء.

إنى أحبه.

وهو يحبنى.

ولكننا مجرد أصدقاء.

وكانت تمر بى أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب فيها لنفسى بحقها فى الحب.. ولجسدى بحقه فى الارتواء.. ولكن عقلى كان يخمد ثورتى.. أعقلى يا بت.. لا تتزوجيه، حتى لا تعيدى تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروى جسدك بلا زواج.. وإلا عودت جسدك أن يشرب بلا حساب.

إلى أن كان يوم.

وقال لى صلاح ونحن جالسان فى حديقة كازينو قصر النيل.

– شهيرة.. إنى أفكر فى الزواج لم أعد احتمل وحدتى .

ونظرت إليه بعينين متغطرستين وقلت : سنعود إلى سيرة الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء.

قال في هدوء :

– إني أقصد الزواج نفسه.. أى زواج.

وانطلق الذعر من عيني.. ولكني بسرعة ضبطت أعصابي، وقلت وأنا أحاول أن أجاريه في هدوئه :

– ماذا تقصد.

قال مبتسما :

– ألسنا أصدقاء.

قلت :

– نعم.

قال :

– وأنت أقرب صديقة إليّ.. بل إنك أكثر من صديقة فإن أمي كما تعلمين، ماتت.

قلت :

– إني أحب أحيانا أن أكون أمك.

قال :

– إذن.. أخطبي لي.. أي واحدة تعجبك.

وضغطت على أعصابي بكل إرادتي، وقلت من تحت أسناني :

– بس كده.. حاضر.

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفهن، وأنا أقنع نفسي بأنه فقط يريد أن يغيظني.. ثم قلت له وأنا أدعي اللامبالاة :

– ما رأيك في ابنة خالتي.. لقد عرفتك بها من قبل.

وقال :

- إنها حلوة.

قلت :

- وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عاما.. أصغر منك بست سنوات.

قال :

- فارق معقول.

قلت :

- وذكية.. ومثقفة.. وست بيت.

قال :

- ودمها خفيف.

قلت :

- سأكلم أمها.

وما زلت معتقدة أن صلاح يغيظنى.. لا يمكن أن يكون جادا فى الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج كما أفعل أنا.

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج.

لا.

ولكنى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أتزوج رجلا يكبرنى كثيرا.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عاما.. مركز.. وثروة.. وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ حياتى معه.

ولكن صداقتى لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قرارى يوما بعد يوم.. فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.

ولكنه يلح علىّ لأتصل بخالتى.

وانتابتنى نوبة من العناد، والغطرسة الكاذبة. واتصلت فعلا

بخالتي، وعرضت عليها صلاح زوجا لابنتها «تيما».. دلع، فاطمة.

ورحبت به خالتي.

ورحبت به فاطمة.

وكاد الكمد يقتلني.. ولكني بقيت على عنادي، وغطرستي.. أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إني دعوته ودعوت تيما وأمها على الشاى في بيتي.. بيت أهلي.

وأنا أنتظر في كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه.

ولكنه لم يعدل.

وهو يفوضني في السير في إجراءات الخطبة.. ويستعجلني !!

وقلت له والمرارة تشق حلقي :

– الرجال لا يؤتمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن تتزوجني أنا.

قال :

– أنت رفضت.

قلت :

– لأني أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم.

قال :

– معقول.

قلت :

– لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما.. تتزوج والسلام.. أى واحدة.

قال :

– الرجل في حاجة إلى الزواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا

أصغر منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقنى الله مع تيما.

قلت :

– فعلا.. خير ما فعلت.

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيما.

وأنا أتعذب.. وأطوى عذابى فى كبريائى الكاذبة.. وابتسامة مرة أضعها على شفتى كلما رأيت صلاح.. وكلما رأيت تيما.. ثم أبكى فى فراشى.. وأصحو ذابلة.. كل شىء فىّ يذبل.. عيناى.. شفتاى.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى ثلاثة كيلو فى شهر واحد.

وصلاح يسألنى :

– ما بك.

وأرد فى كبرياء :

– لا شىء.. عاملة رجيم.

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلتى الخطوبة..

انتقيت الدبلتين بنفسى.. ودموعى مختبئة تحت جفنى.

ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى :

– الاسم من فضلك.

وترددت قليلا.. ثم قلت :

– صلاح.

وعاد الصائغ يسأل :

– والاسم الثانى.

وفتحت شفتى.. ثم أغلقتهما.. ودون أن أنظر إلى صلاح.. عدت وفتحت شفتى، وهمست فى صوت خفيض :

– شهيرة.

اسمى أنا.

وسمع صلاح همستى برغم خفوتها، وصرخ فىّ الصائغ :

– شهيرة.. الاسم الثانى شهيرة.

ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لماذا هو فرح إلى هذا الحد.. إلى حد الصراخ.

والتقط صلاح يدى وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ فى هدوء :

– العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح.. والتاريخ تاريخ النهاردة.

ثم جذبنى.

وسار بى كأنه يجرى.

ودفعنى فى أول سيارة أجرة.. وذهب بى مباشرة إلى المأذون.. كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغنتنا فترة الصداقة عن فترة الخطوبة.

أتدرى ماذا تقول خالتى.

إنها تقول إنى خطفت عريس ابنتها.

إنها لا تعلم شيئا.

ولا تعلم أنى أعيش خائفة.. الخوف يمزقنى.. فحبيبى.. زوجى.. يصغرنى بأربع سنوات.

استقالة عالمة الذرة ..

سيدى الوزير.

صباح الخير.

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول استقالتى لأسباب خاصة، وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام».. وقد فكرت فعلا فى أن أرسل إليك استقالتى فى هذه الكلمات القليلة، حرصا على الطابع الرسمى بين الوزير وإحدى موظفات وزارته.. ولكنى تذكرت ما يمكن أن تسببه لك استقالتى من ألم.. وتذكرت برقيتك التى أرسلتها إلىّ وأنا فى أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه فى علوم الذرة من جامعة هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، وما زلت أذكر كلماتها حتى اليوم : «عزيزتى عنايات، إنى فخور بك».. كلمات ملأت قلبى بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة بى.. وأن كل من فى مصر أخ لى وأب وابن عم.. وكلهم فرحون بى.. ثم تذكرت الحياة التى عشتها بعد أن عدت،

وعينت فى المعهد القومى للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعا فوق روتين الحياة الرسمية التى يعيشها الموظف العادى داخل جدران الوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعف بكثير من الكون الهائل الذى يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقترب بعضنا من بعض، عقليا وعاطفيا، لنتساند ويحتمى أحدنا بالآخر، حتى لا نضيع فى هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائما أنك وزير.. فكنت معنا أخا وصديقا.

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات رسمية قليلة.. حقك علىّ يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتى.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهمك كوزير.. وربما أضحكتك كعالم يستغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهمك كأخ كبير .. وواثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويه لك.

تبدأ المشكلة يا أخى الوزير، منذ أن تزوجت.. وانتقلت أنا وزوجى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السعودية المطلة على النيل.. لقد أحببت هذا البيت.. وضعت فيه كل أحلامى، وكل ذوقى، وكل حنانى ولكن البيت لم يشغلنى أبدا عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحث.. لا، لا.. لم أكن أنساه، ولكنى كنت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحيا.. يعمل.. وتذكر سيادتك أنى كنت منكبة خلال هذه المدة على التجارب الخاصة بتأثير النظائر المشعة، فى علاج مرض تسوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية

تماما.. كنت أشعر بقلبي يستيقظ من نومه، ويأخذني من فوق العظام المسوسة، ويذهب بي إلى بيتي.. بيتي الذي أحبه.. ولم أكن أصل إلى البيت قبل زوجي، كما هو المفروض.. غالبا كنت أذهب بعده، برغم أن سيادتك أمرت بتخصيص سيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجي يغضب.. أبدا.. فأنت تعرف أنه أستاذ الألكترونات في كلية الهندسة.. عقله واسع.. تلقى علومه في سويسرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التي يعيشها زوجان يشتغلان بالعلم.

وكنت أجده عادة، قد أعد المائدة ووضع الطعام، الذي طهوته في الليل، على البوتاجاز، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروي له ما وصلت إليه في بحثي عن تسوس العظام، ويروي لي ما وصل إليه في بحثه عن الألكترونات.. ثم نقوم ونغسل معا الصحون والأواني.. ثم يخرج زوجي إلى الشركة التي يعمل مستشارا لها، بعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرني إلى العودة إلى المعهد، ولكني كنت متحمسة لأن أنتهي من بحثي، حتى أجعلك تفخر بي مرة ثانية، كما افتخرت بي يوم نلت الدكتوراه بدرجة امتياز.

هكذا كنت أعيش أنا وزوجي.

لم أفكر أيامها في أن أستأجر خادمة.. أبدا.. كنت أخاف على بيتي من الخادمات.. ولم أكن في حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية في أمريكا.. أنا وزوجي نتعاون في خدمة أنفسنا.. وفي كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاونني في تنظيف البيت نظافة كاملة.

إلى أن حملت يا سيادة الوزير.

هل رفعت حاجبيك وأنا أحدثك بهذا الكلام.. لا تنس أني

امرأة.. صحيح أنى أشتغل فى علوم الذرة.. وصحيح أنى نلت الدكتوراة.. وصحيح أنى قضيت ثلاثة أرباع عمرى بين الكتب والمعامل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لست امرأة.. لا يعنى أنى أصبحت عقلا الكترونيا.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك، أو مثل زميلى الدكتور عوض.

إنى امرأة.. ولأنى امرأة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع الحمل. برغم أنى قدرت أن الحمل قد يشغلنى عن انهماكى واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس العظام.

أتدرى ماذ كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت ؟

خادمة.

لم أكن أستطيع أن أضع أى تنظيم لحياتى بعد الوضع، دون الاستعانة بخادمة.. ولم أكن أتصور أن الخادمة يمكن أن تكون مشكلة.. أبدا.. لم أكن أتصور هذا.

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن يبحث لى عن خادمة.. أوعلى الأصح مربية.. وقد مضى أكثر من أسبوع دون أن يرسل لى البواب أحدا.. وعدت أسأله، فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

– أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم.

ولم أصدقه.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائى، وأقارب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة.

وأخيرا. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امرأة فى الثلاثين من عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة.

وفرحت بها.

عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان

خادماتهم.. أعددت لها سريرا فى الحجرة التى أعددتها للمولود المنتظر.. وخـصصت لهـا أربع ملاءات سـرير، لتغـيرها فـوق سريـرها.. و.. و.. لن أضيع وقـتك يا سيـادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائيـة.. ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بـطفلى.. وأعدها لتـحمل مـعى الأمانة الكبـيرة.. أمانة تربية الطفل.

وعاشت معى زينب شـهرين.. وفى كل يوم أثق فيهـا أكثر، إلى درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد كل شىء مـعدا لى ولزوجى.. كأنى أعـددته بنفسى.. بل إنى تحسـرت على الأيام التى ضاعت من عمـرى قبل أن تدخل زينب بيتنا.

وفى يوم.

خـرجت زينب فى اجازتهـا الأسبـوعـية لتـعود فى اليـوم التالى.. ولكنهـا لم تعد.. ومر الـيوم الثانى والثـالث ولم تعد.. وارتعش قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمـه بين ضلوعى، ليتفرغ عـقلى للبحث فـى تأثير النظائر المشـعـة على مرض تسـوس العظام.

ثم عادت زينب.

عادت لتبلغنى أنها لن تعود.

– ليه يا زينب؟

وأجـابت وهى خـجلة من بشـاعة الجـرم الذى ترتكبـه فى حقى :

– أصل جوزى رجعنى يا ستى.

قلت وأنفاسى تتلاحق :

– وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا.

وخبطت على صدرها قائلة :

– يا خبر يا ستى.. أنا جوزى ما يرضاش أنى أشتغل أبدا.. ده أسطى مكوجى قد الدنيا.

وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى :

– وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا باشتغل أنا كمان.

وقالت زينب :

– لأى يا ستى.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة ثانية غير البيه بتاعك.

وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى يأس :

– طيب خليكى لغاية مالاقى واحدة تانية.

وقالت :

– معلهش والنبى يا ستى.

قلت :

– بس الأصول أنك تدينى إنذار، القانون بيقول كده.

ونظرت إلىّ كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها :

– قانون إيه يا ستى.. أنا لا سرقت، ولا قتلت.

و...

ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من خدمتى.. هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب.. لا.. فأنت لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر حالى.. حالة زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة مثالية.

وبدأت أبحث عن خادمة أخرى.

كأنى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة.

وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت..

ولم أسترح لعصمت منذ رأيتها.. كانت فى العشرين من عمرها.. تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة.

وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة.. قميص.. كرافتة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من حياتى.. طردتها.

ثم أرسلت لى أمى من الأسكندرية مربية عجوزا.. أم سنية.. واسترحت لها فى بادىء الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قذرة عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف وراءها.. طبق طعامها الذى تلقيه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائما التى تفوح منها رائحة العطن.. وكانت تأكل كثيرا.. لم أر فى حياتى يا سيادة الوزير عجوزا تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لست بخيلة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شيئا تأكله.

وتقززت منها نفسى.

وطردتها.

ثم وضعت ابنتى.

وضعتها وليس عندى مربية أو خادمة.

وتذكر سيادتك أنى أخذت أيامها إجازة شهرين، قضيتهما وأنا أفكر كيف أدبر حياتى وحياة ابنتى، فى الوقت الذى أعمل فيه بالمعهد القومى للبحوث، وأتفرغ بعقلى لعلاج تسوس العظام بالنظائر المشعة.

وكنت أقدر عملى.. لم يكن عملى مجرد مساهمة منى فى نهضتنا العلمية، بل كان هوايتى.. كان حياتى.

وابنتى أيضا حياتى.

وفكرت.. فكرت كثيرا.

فكرت أن أرسل ابنتى إلى أمى فى الاسكندرية لتربيها.. ولكنى أم يا سيادة الوزير.. ولا تستطيع أم أن تتنازل عن ابنتها حتى لأمها.

فكرت أن أقنع أمى بأن تأتى وتقيم معى فى القاهرة.. ولكن مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد.

فكرت أن أضع ابنتى فى دار من دور الحضانة.. ولكن أين هى دار الحضانة التى أستطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة.

فكرت أن أطبق نظام «رعاة الأطفال» أو «البيبى سيتر» المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولسنا فى أمريكا.

فكرت.. فكرت.. وكان كل تفكيرى منحصرا فى تدبير حياة ابنتى، بحيث اتفرغ لرسالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة فى سبيل سعادة الإنسان.

ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من جديد.

وجاءت.. سعدية.. شابة سمراء مدربة.. فرحت بها، كما فرحت بزينب.. ومنذ اليوم الأول اطمأننت على ابنتى بين يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها خمسة جنيهات، ولكنها طلبت سبعة.. ودفعت لها السبعة.. وقطعت إجازتى.. وبدأت أذهب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد أستطيع أن أتفرغ بكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدى سعدية.

ولكن.

بعد شهر واحد.

شـهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت سعدية من يوم إجازتها وطلبت حسابها لتخرج من خدمتى :

وصرخت :

– ليه يا سعدية.. حد زعلك.. ناقصك حاجة.

وقالت :

– أبدا يا مـدام.. بس الجمـاعـة اللى كنت عندهم عـايزينى تانى.. وأنا الحقيقة متربية عندهم.

ولا أمل.

وقال لى البواب بـعد أيام إنها لم تذهب إلى بيت مخـدومها السابق، بل ذهبت لتعمل فى العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت أجرها إلى تسعة جنيهات.

وعدت وانقطعت عن العمل لأجلس مع ابنتى.

فكرت أيامـهـا أن أطلب منك أن تسـمح لى بأن أعـمل بعـد الظهر، حـتى أبقى مع ابنتى فى الصبـاح إلى أن يعود زوجى، فأتركها له وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مسـتحيل.. مستحيل أن أطلب من زوجى أن ينقطـع عن عمله فـى الشركـة التى يعـمل فيـها بعـد الظهر.. ثم أنها مـسئـوليتى أنا، وليست مـسئـولية زوجى.

وبدأت أستقبل خادمات جديدات.

فتحية.. كانت صريحة.. لم تبق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى واعترفت أنها كانت متقـدمة بطلب للعمل فى مصنع.. وقد قبل طلبها.

وخرجت.

ثم أخيرا.

خديجة.

كانت خديجة صغيرة.. فى الثامنة عشرة.. حلوة إلى حد أنى غرت من جمالها.. وجاءت إلىّ تلبس بلوفر «موهير» وجيب ترجال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلها مظاهر تخيفنى منها.. ولكن لماذا أخاف.. إن الخادمات فى أمريكا يبدون أكثر أناقة.. ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى.

ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى المرآة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنونا على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم إلى عينيها.

وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد.

ولكنى لم أكن مطمئنة.

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحيانا بربع عقلى.. وأحيانا يضيع عقلى كله، وأسرح وراء ابنتى.. وأتساءل.. هل ناولتها خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن.. هل.. هل.

وفى يوم.

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكرسكوب أفحص العظام المسوسة.. وفجأة شعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم.. شعرت بأن شيئا قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن سر هذا الشعور.. لم أحاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم انطلقت وأنا ما زلت أرتدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج المعهد، وركبت تاكسى وعدت إلى البيت.. والهلع يشتد فى قلبى دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ فى السائق :

– قوام من فضلك يا أسطى.

إلى أن وصلت.

وجريت إلى المصعد.

وجريت من المصعد إلى داخل الشقة.

وسمعت شيئا كالصراخ.. صراخ ضعيف.. ووضح الصراخ في أذني وأنا أقترب من غرفة ابنتي.. ابنتي تصرخ.

ورأيتها.

واقعة من فوق سريرها على الأرض.

والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سميكة، وإلا كان رأسها قد تهشم.

وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة.

الحمدلله.. سليمة.

ولا أدرى ما حدث لى.. ولكنى تركت ابنتى على الأرض، لم أرفعها لأضعها على السرير، وجريت كالمجنونة أبحث عن خديجة.. ووجدتها واقفة على سلم المطبخ مع شاب يبدو عليه أنه طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفسى أندفع إليها وأرفع ذراعى وأنهال عليها ضربا، وأنا أصيح :

– يا مجرمة.. يا مجرمة.. أمشى اطلعى برة..

اطلعى من بيتى

وجرى الشاب من أمامي.

وخرجت خديجة من بيتى.

حدث هذا أمس.

واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب.

لأستقيل.

سيدى الوزير.

أرجوك.. لا تحاول أن تذكرنى بواجبى نحو بلدى، ونحو نهضتنا العلمية.. ولا تذكرنى بالسنين الطويلة التى قضيتها

لأجعل من نفـسـى إنسانة تستـطيع أن تخدم وطنها فى مـجال لم يتسع بعد لكثيـر من المواطنين، لا تذكرنى بالسلام.. وتقدم الإنسان.. فإنك لا تسـتطيع أن تضع كل ذلك فى كفة ثم تضع ابنتى فى الكفـة الأخرى.. وتجـعلنى أختـار.. مسـتحـيل.. إنك تنسى أنهـا ابنتى.. وأننى أم.. وقـد أسـتطيع أن أسـتقـيل من واجـبى كعـالمة فى الذرة، ولكنى لا أسـتطيع أن أسـتقـيل من واجبى كأم.

والذنب ليـس ذنبى.. إنه ذنب الدولـة.. ذنب المجـتـمع.. إن الدولة عندمـا تشتـرى آلة جديـدة فإنهـا تخصص لهـا عمـالا يعاونونهـا على العمل.. واعتبـرنى آلة.. ولكن عندما بدأت هذه الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدونها حتى تؤدى عملها على الوجه الأكمل.

الدولة لا تسـتطيع أن تطالبنى بالعمل إلا إذا طمـأنتنى على راحة ابنتى.. وحياتها.

وأرجـوك يا سـيادة الوزير.. أرجـوك إذا صـمـمت على أن ترفض استقالتى، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن لى أن أطمئن عليها.

وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

كلام ستات

لا أدرى لماذا قررت أن أعمل « رجيم » .. إنى لست سمينة .. ومدام أسبريدون الخياطة تقول إن قوامى يجنن ، وإنى أصلح لأكون موديلا .. مانيكان .. وإنها تعتبر كل ثوب تصنعه لى دعاية لها .. وحتى لو كانت مدام أسبريدون تتافقنى .. فإنى أستطيع أن ألمح جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت زوجى .

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيما .. ربما لأنه لم يكن لى شىء آخر أعمله .. وكان من ضمن الرجيم أن أمشى فى كل يوم ساعة .. لتنشيط الدورة الدموية .. ولم أكن أستطيع أن أمشى وحدى .. ولا مع زوجى .. فى قدم زوجى كالو ولا يحب المشى .. فاتفقت مع صديقتى ، روحية وأنجى ، أن نمشى معا .. كل يوم .. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الرابعة .. فى الشمس الدافئة .

روحية رفيعة .. ومشاكلها كثيرة .. وربما وافقت على

ممارسـة رياضة المـشى ، كرجـيم لعـقلهـا أكثـر منه رجـيمـا لجسدها .

وأنجى .. تعتقد فى نفسها أنها جميلة ، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفسـها أنها جـميلة امرأة سعيدة ولم تكن أنجى أيضا فى حـاجـة إلى رجيم .. وربمـا لم تكن تحب المشى .. ولكنهـا قطعا تحب الاستعراض !!

وأنا أحب روحيـة وأنجى .. إنهمـا أعز صديقـاتى .. ونحن الثلاثة نثير حسد كل النســاء بصداقتنا والحب المتبادل بيننا .. كل منا تعرف عن الأخـرى كل شـىء .. بل إنى أستطيع أن أقلد شـخير زوج روحية وهو نائم ، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج أنجى فى جيبه كل صباح .. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشا .. كمـصروف خاص .. وهما لا يعرفان عنى أى شـىء .. لا لأنى أتعمد أن أخفى عنهما شيئا .. ولكنى لا أحب أن أتـحدث عن حـياتى الخاصــة .. كل ما يعرفـانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى .

المهم ..

خـرجنا فى الـيـوم الأول .. كنت ارتدى ثوبى البـــرتقـالى الصـــوف .. صـوف مـصـــرى ، وكـأنه صنـع باريس .. كل صديـقاتى اعتـقدن أن زوجى اشـــتراه لى من باريـس .. مدام اسـبريدون الخـيـاطة أيضا .. برغم أنهـا تعـتبـر خـبيـرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوربا .

وكانت روحـية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليـها منذ عامين .. جـيب ترجال .. لا أدرى كيف تطيقـه كل هذا العمر .. وبلوزتها الخـضراء .. والجاكت الجلد التى تبـدو فيها كـسائق

الأتوبيس .. غلبت فى أن اجـعل روحـية تهـتم بثيـابها .. إنهـا بخـيلة .. ولا تشتـرى إلا مـا يحتـمل السنين .. ولكنهـا طيبـة والنبى .. إنى أحبها .

وهلت علينا أنجـى وهى ترتدى بنطلون « ستـرتش » لونه أحـمر ، وبلـوفر أسـود .. والنبى ده كـلام .. ده احنا طالعـين سبور .. مش رايحين حفلة .. يبقى لازمة البنطلون إيه .. ولكن هكذا أنجى .. إنهـا تعتبـر نفسـها صـغيرة .. نونو .. مـع أنها ليست أصغـر من ابنة خالتي عدلية .. إلا بستـة أشهر .. ولكن أنجى دمـها خـفيف .. إنى لا أسـتطيع أن أستـغنى عنها يـوما واحدا .. حبيبتى .. صاحبتى .

وقد صحبت معـى كلبى روك .. ليمشى معنا .. إن المسكين محبوس فى الشقـة طول النهار والليل .. حرام .. وقد قالت لى روحية بمجرد أن رأت روك :

– ولازمة روك إيه .. عامل رجيم هو راخر .

وأجبتها :

– علشان يبقى معانا راجل على الأقل !!

إنى سريعة النكتة .

وبما أنى صـاحبة فـكرة الرجيم ، فـقد بدأت أدرب روحـية وأنجى على طريقة المشى الرياضى .. افـردى ظهرك .. اشفطى بطنك.. ارفـعى رأسك .. وأحكمت وضع نظارتى على عـينى .. وبدأنا نسير نحن الثلاثة ، كـثلاث فدائيات .. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية .. وأنجى تغار من نظارتى .

وكنا قد اخترنا أن نمشى فى شـارع النيل ابتداء من عمارة أبو الفتوح حتى كوبرى عباس .. إن صـديقتى عزة حرم محمد

فهمى مـدير شركة الصاروخ ، تسكن فى عمـارة أبو الفتوح .. وقد اشترت خاتما من عند باروخ فى الأسبوع الماضى ، وقالت إنها اشـترته بثلثمـائة جنيه .. عزة تحب المبـالغة .. إنها لطيـفة ومهـذبة ، ولكن عيبهـا هو المبالغة .. وقـد ساومت باروخ منذ شهـرين على نفس الخاتم وطلب فـيه مائة وخـمسين جنيـها، ولكنى لم أشـتره ، لأنى سبق أن رأيـت مثله فى إصبـع فريدة هانم .. ولكن روحيـة تقول إن عزة لـم تشتر الخـاتم ، ولكنها أخذته هدية من صديقها عبد العزيز .

– حرام عليكى يا روحية .

وقالت روحية وهى تمشى مشية الفدائيات :

– حرام ليه يا أختى .. الحق يتقـال .. وعزة مزوداها حبتين .. دى مـا بتحـترمش جـوزها أبدا .. زى ما يكون مش عـايش معاها ..

وقالت أنجى :

– دمه تقيل عـبد العزيز ده .. وعنيه لا يده عـلى الستات .. ده ما يبطلش بص .

إن أنجى تعـتـقـد أن كل رجل يطمع فـيـهـا ، حـتى أزواج صديقاتها .. وحتى أصدقاء صـديقاتها .. يا بختها .. إنى لست مغرورة ، ولكنى أحيانا أحسد المغرورات .

وقلت :

– حرام عليكى يـا أنجى .. ده راجل مؤدب ، وما بيـرفعش عينه عن الأرض .

وقالت أنجى وهى تنظر فى نظارتى :

– صـدقينى .. أنا عـارفاه كـويس ، ومسـتعـدة أحكى عنه

للصبح .. بس انتى اللى ما بتخديش بالك .

وقالت روحية :

– سـيبكـم من عزة وعـبـدالعـزيز .. تعرفـوا اللى حـصل لخديجة .

وقالت أنجى :

– مين دى خديجة ؟

وقالت روحية :

– خديجة شكرى :

وقالت أنجى :

– آه قصدك دودى .. مالها .. حصل لها إيه .. دى صاحبتى قوى .

وقالت روحية :

– مش اكتشفت أن جوزها واخد شقة لواحدة طليانية .

وقالت أنجى :

– السافل .. كل الرجالة كده .

وقلت :

– يا روحية .. خافى ربنا .. بلاش سيرة الناس .

وقالت روحية :

– أمال حانتسلى فى إيه .. وأصــل دى حاجات ما ينسكتش عليها .

وقالت أنجى :

– على كل حال دودى مـا عملتش شوية .. هى المحقـوقة .. ده كان جوزها لازم يطلقها من زمـان .. وأهو بدل ما يطلقها ، عرف عليها .

ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان .. يبدو أنهم من طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر .. والثانى تخين وشكله مضحك .. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه خارج منها .

وصاح الأشقر :

– البنطلون الأحمر يكسب .

وابتسمت أنجى .

إن أنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية .. إنها تمشى كأنها فى عرض أزياء .. وبنطلونها يبرز كل قطعة من جسدها.. عيب .. ما يصحش .. وبرغم أنها طيبة ، ودمها خفيف ، إلا أنها أحيانا تزودها حبتين .

إنى لا أطيق الشبان الشقر .. إنهم أقرب إلى البنات .

وعادت روحية تقول :

– وتعرفوا خديجة عملت إيه .. راحت بنفسها على الشقة .. وهجمت على البنت الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها .. ماخلتش فيها .

وقالت أنجى :

– ياى ..

وقلت :

– تبقى غلطانة .. كان لازم تحترم نفسها .. ثم إن الست ذنبها إيه .. الذنب ذنب الراجل .. والحساب يبقى مع الراجل .

وعادت روحية تقول :

– ما هى حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها .. تعرفوا عملت إيه .

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول :

– أموت فى الشيش بيش .

إنى أحتقر الـرجل الذى يتلهف على قوامى .. إنى أعرف أن قوامى مثير ، ولـكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه .. ولكن .. كيف رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا .

وحيرنى هذا السؤال .

وقالت روحية :

– يوم ما حسنية عرفت أن جوزها .

وقبل أن تتم ، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطة .

وصرخت :

– روك .. روك .. تعالى هنا .. با أقولك تعالى هنا .

وصاح الرجل الذى يسير وراءنا .

– مـاتزعليـش يا قطة .. الكلب حـايرجـع لك .. كل الكلاب تحت أمرك .

وفـجأة وقفت بجانبنا سيارة .. وأطل منها وجه رجل ، وقال مبتسما :

– أنـجى هانم .

وشـهقت أنجى ، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك :

– ده محمود ابن عمى .

وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع :

– ابن عمك من أمتى !

وقالت أنجى :

– اخص عليكى ياريرى ، مش مـصدقانى .. تعـالوا أعرفكم بيه .

وقلت :

– لأ .. لأ يا أنجى .. أنا ماحبش أتعرف بحد فى الشارع .

وقفزت أنجى نحو السيارة وصافحت الرجل المبتسم ، وأخذت تتحدث معه .

إنه رجل عجوز .. أكبر من أنجى بكثير .. وإن كانت روحية تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره .

وعادت أنجى إلينا بعد حديث طويل .. وقالت :

– عن إذنكم يا جماعة .. محمود بيقول إن مرات عمى عيانة قوى ، ولازم أروح أقعد جنبها .

وقلت فى حدة :

– احنا ما اتفقناش على كده يا أنجى ..

وقالت أنجى :

– وأنا إيه كان عرفنى أن مرات عمى عيانة .. ده محمود كان جاى لى البيت دلوقتى ، علشان يقول لى .

وقالت روحية :

– حلال عليك يا ستى .

وقالت أنجى ضاحكة :

– لا والنبى يا روحية .. ماتبقيش وحشة أمال .. أنا بعد نص ساعة حاكون فى البيت .. يدوبك أطل على مرات عمى وأرجع على طول .

وقفزت أنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم .

ومشيت أنا وروحية .. مشية رياضية .. الظهر معتدل .. والبطن مشفوط .. والرأس مرفوع .. وبيننا صمت ووجوم .

وعاد روك من وراء القطة ، وسار بجانبى .

وقطعت روحية الصمت قائلة :

– بأه دى عمايل تعملها أنجى .

وقلت لها :

– ما انتى عارفة أنجى يا روحية .. يعنى مش عارفاها ..

وقالت روحية :

– بس مش كده .. طيب ده أنا ممدوح قعـد يتحايل على فى التليفـون إنه ييجى يتـمشى معـانا ، مارضيـتش .. قال لى إنه حايمشى ورانا بالعربية برضـه مارضيتش ، قلت له إن شفتك مش حـايحـصل لك طيب .. أصل كل حـاجـة ، لهـا أصـول .. الواحدة ما تكونش بالشكل ده .

قلت :

– إنتى لسه بتعرفى ممدوح .

قالت :

– أعـــمل إيه .. مش راضى ينكـشح أبدا .. مش ســـايبنى أتنفس لوحدى .

والرجل لا يزال يسير خلفى ، وقال بعد أن كح كحة غليظة :

– أجيب تاكسى أنا كمان .

وقلت لروحية :

– شفـتى الراجل بيقـول إيه .. طبعـا .. بعد مـا شاف اللى عملته أنجى ، من حقه يتجرأ علينا .

وقالت روحية :

– إنما تعرفى أن ممدوح مـخلص صحـيح .. ده شاف منى الويل .. وبرغم كده مخلص .

قلت :

– بس إنتى حقـك تعقلى بأه يا روحيـة .. ده ضفـر جوزك بعشرة زى ممدوح .

وقال الرجل الذى يسير خلفى :

– يعنى لازم أجيب عربية ملاكى .. بكرة ربنا يفرجها .. أنا موظف فى وزارة التمـوين .. وكلها شهرين وأكـمل حق عربية نصر ١١٠٠

وقالت روحية :

– ومـين قـال لك إنى أقـدر أستـغنى عـن جوزى .. حـقـه مالكيش حق .. إنما أعمل إيه .. ما هو كمـان قاعد فى مكتبه ليل ونهار .. ويخرج سرحان ، ويرجع سرحان .

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك :

– روك .. روك .. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك ..

وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا .

والتفت خلفه وأنا أصيح فى عصبية :

– روك تعالى هنا .

ولكن روك يلحمس يد الشاب ، ويهز له ذنبه .

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه :

– أنا نفسى أصاحب روك .. عندك مانع .

وقلت فى حدة :

– من فضلك .. أنا ما أعرفكش .

ثم استدرت للشاب ، وقلت لروحية :

– ياللا بينا نرجع يا روحية .

إنه شـاب صغـير .. لا يزيد على الثـانية والثـلاثين .. وهو يضع نظارة مثـلى .. ولكن نظارته أسمك بكثـير من نظارتى ..

وعيناه تطلان من خلفها ، كأنهما نجمتا الصباح .. وشاربه صغير أنيق .. ولكن حلته لا تعجبنى .. ذوقها بلدى .. وكرافتته تقرف .. ويشبك فيها دبوسا .. إنى أكره الرجل الذى يشبك دبوسا فى كرافته .

●●●

وعدنا إلى البيت ..

وقد اتصلت بأنجى بمجرد وصولى فلم أجدها قد وصلت إلى بيتها .. واتصلت بها بعد ساعة أخرى فلم أجدها قد وصلت .. وفى الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى التليفون وقال فى ضيق :

– أنجى عندك ..

وبلعت ريقى وقلت :

– كانت عندى هى وروحية ، ولسه نازلين دلوقتى .. زمانها جاية لك .. أصلنا خرجنا نتمشى علشان الرجيم ، وبعدين عزمتهم على الشاى عندى .. وازيك يا رحمى بيه .. أخبارك إيه.

وقال رحمى بيه :

– كويس .. بونسوار بأة .

ووضع السماعة ..

إنى أكره نفسى عند ما اضطر أن أكذب .. وأنجى تضطرنى دائما لأن أكذب .

وفى اليوم التالى خرجت لأتمشى أنا وروحية .. لم نأخذ أنجى معنا .. حتى لا يبوظ الرجيم .. بل إنى من يومها قاطعت أنجى .. تصوروا .. أنها تذيع عنى فى كل مكان أنى أحب

موظفا فى وزارة التمـوين .. يضـع على عينيه نظارة .. ويشبك فى كرافـتتـه دبوسا .. وعنده سـيارة نصـر ١١٠٠ .. بل إنها تقول إنى أنا الذى اشتريت له السيارة .

أعمل فيها إيه يعنى .

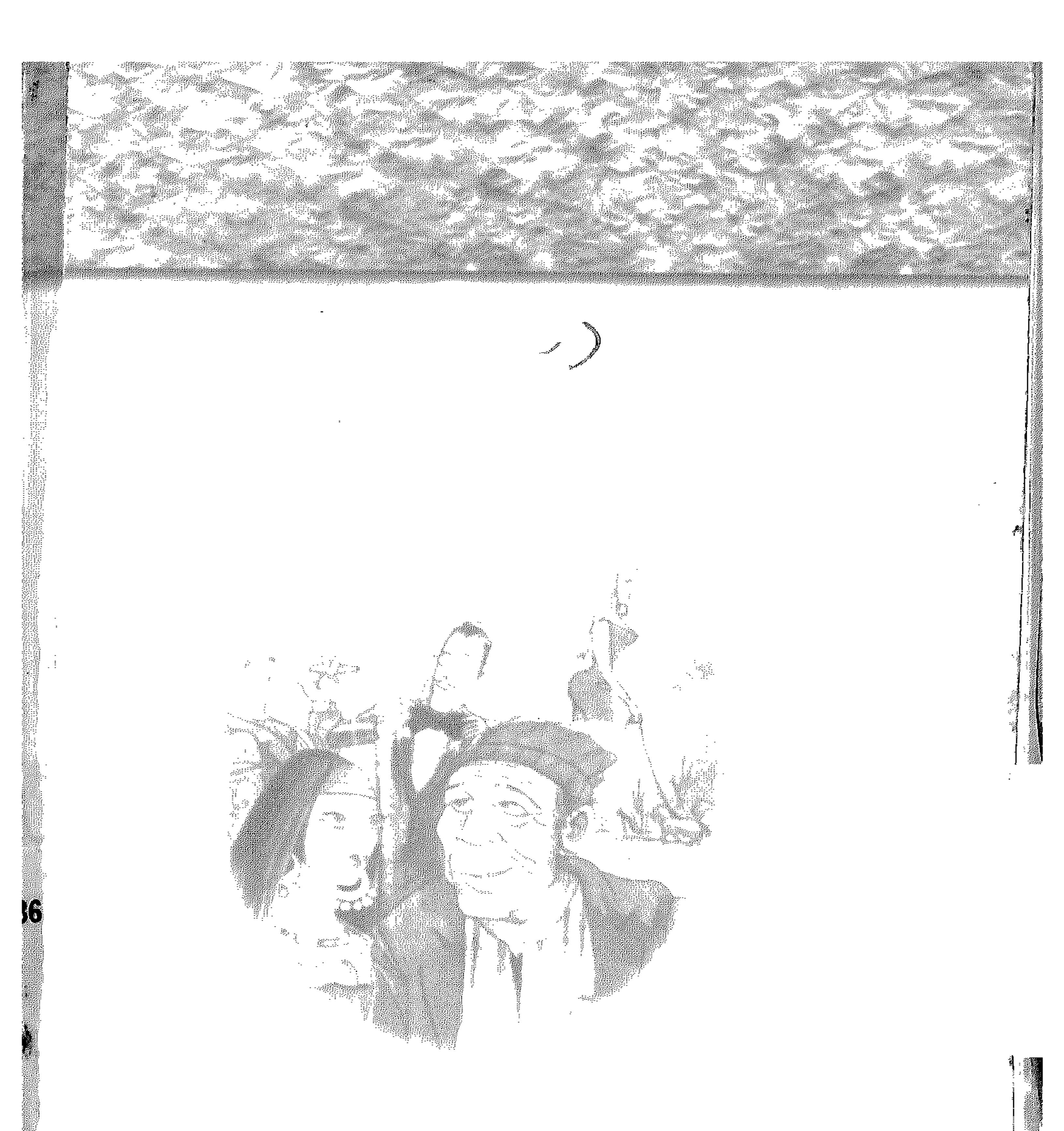
ربنا يسامحها .



الفهرس

رقم الإيداع ٧١٣٤/ ٩٩
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0823 -7

طبع بمطابع دار أخـــبـــار اليــوم



طبع بمطابع أخبار اليوم